ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ( القرآن الحكيم)

# الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

**العـــــدد : ٤ ، السنـــــة : ٥٠**

**ربيع الآخر ١٤٤٧هـ ، أكتوبر ٢٠٢٥م**

تحت إشراف

**فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني**
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

**محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**
الأستاذ بالجامعة

**الاشتراكات**

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

**عنوان المجلة على الانترنت**
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

**طالعها الآن**

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

**المراسلات**

**رئيس التحرير مجلة الداعي**
**دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي ( الهند )**
**الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤**

**Chief Editor**
***AL – DAIE***
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
( U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
**Ph. : (00-91-1336) 222429**
**Fax : (00-91-1336) 222768**

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

# المحتويات


**كلمة المحرر**

- أخيرٌ أريد بالمسلمين؟ — التحرير — ٣

**كلمة العدد**

- دور المعاملات في تأليف القلوب — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

**الفكـر الإسلامي**

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩
- شبهات و ردود — المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ — ١٤

**دراسات إسلامية**

- تكرار القصص في القرآن — الأستاذ كامل شاهين — ٢٠
- حض النبي ﷺ على محو العامِّية وتحذيرُه
- من الفتور في التعليم والتعلُّم — الشيخ عبد الفتاح أبو غدة — ٢٧
- في صحبة المكفوفين — الشيخ أحمد الشرباصي — ٣٣
- حماية النظام الأسري ضرورةٌ شرعيةٌ واجتماعيةٌ — الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي — ٣٧
- ساعات في مدينة المال والأعمال — التحرير — ٤٦

**إشـراقـــــة**

- من أشد منا قوةً — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

# كلمة المحرر

## أخيرٌ أريد بالمسلمين؟

في الوقت الذي تكالب أعداء الإسلام والمسلمين عليهم من الخارج، ويُصابون بشبه انهيار وصل إلى أبشع مراحله من الداخل، فأصبحوا في كثير من بلدان العالم يضرب بعضهم رقاب بعض، و يعانون تمزقًا في صفوفهم لم يسبق له نظير عبر تاريخهم الطويل، ونسمع قصصًا بشعة من اعتداء بعضهم على بعض في غياب الرحمة عن القلوب التي عادت حجارة أو أشد منها.

وفي هذا الخضم الهائج المائج الثائر، وفي مثل هذه الظروف الحالكة الظلام يحلو للبعض من بني جلدتنا يتكلمون بلساننا، ويكتبون في صحفنا وجرائدنا، أن يخرجوا بمشروع قميء، ودعوة لاتخدم إلا أعداء الأمة و وحدتها وتكاتفها وتعاضدها، يخرجون ليوجهوا أصابع الاتهام إلى صحابي أو أصحاب رسول الله ﷺ، يتطاولون عليهم، ويشككون في عدالتهم. وما مثل من يطعن في الصحابة أو أحدهم أو يتكلم فيهم إلا كما قال الشاعر الأعشى(٠٠٠ - نحو ١٠٠؟ هـ = ٠٠٠ - نحو ٧١٨؟م):

كَناطِحٍ صخرةً يومًا لِيَفْلِقَها ... فلم يَضِرْها وأوهى قرنَهُ الوَعلُ

جاؤوا ليخرجوا المسلمين من النور إلى الظلمات، ومن المحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك - إلى بنيات الطرق المشبوهة ناسين أو متناسين أن الصحابة – وهم كلهم عدول باتفاق الأمة الإسلامية- هم حملة هذا الدين ونقلة هذه الشريعة إلى من بعدهم.

وهذه الدعوات والتوجهات المقيتة لم ولن تنطلي إلا على أشباه المتعلمين وجهلة المسلمين الذين يستجيبون لكل داعٍ، ويجرون وراء كل ناعق، ولايدركون هذه الأمور إلا بعد فوات الأوان، وربما لا قبل الأوان ولا بعده. فيستغل الإعلام الرخيص هذه الظاهرة في تشويه سمعة الإسلام، وتقبيح وجهه الناصع المنير، والازدراء بأئمة المسلمين ونقلة شريعتهم.

والطعن في الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- أحدهم أو جميعًا، وشن الغارة عليهم في إبان ضعف المسلمين المزري هذا لايعني إلا تفجير خلاف قاتل ذميم في الأمة الإسلامية كلها. ولايغيبن عن البال أن الطعن في صحابي يستتبع الطعن في الصحابة كلهم، وفي حفَظَة الشريعة، و رواتها، ونقادها عبر القرون، ويوشك أن يأتي يوم يخرج فيه من يطعن حتى في القرآن الذي تلقاه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن النبي ﷺ كما تجرأ عليه غلاة الروافض.

فالله الله أيها المسلمون، في أصحاب نبيكم، لاتتخذوهم غرضًا من بعده-ﷺ-، فمن أحبهم بحب نبيه أحبهم، ومن أبغضهم فبغض نبيه أبغضهم. وخذوا حذركم- كل الحذر- من أمثال هذه الدعوات؛ فإن الحق أبلج، لايخفى على ذي عين وقلب سليم غرتُه وحجوله، وباقٍ ما بقي السماوات والأرض، والشمس لاتغطى بالغربال، وأما الباطل فلجلج- وإن تعززت أصوله وفروعه- وغثاء كغثاء السيل، يوشك أن يتلاشى فلاتجد له عينًا ولا أثرًا. و﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧]. وحُقَّ لأمة جعلهم الله شهداء على الناس،وجعل الرسول عليهم شهيدًا ألا يضيع فيهم الحق، التفافًا على الصواب، وانجرارًا وراء العواطف و الشبهات. وأحرِ بـ(مشروع الضرار) القائم على أنقاض أعراض الصحابة نقلةِ الدين أن ينهار.

تَعالَوا فإنَّ العِلْمَ عندَ ذَوي النُهَى ... من الناس كالبَلْقاء بادٍ حُجُولُها [التحرير]

(تحريرًا في الساعة الرابعة مساءً من يوم الخميس: ١٢/٢/١٤٤٧=٧/٨/٢٠٢٥م)

# دور المعاملات في تأليف القلوب

الإسلام دين الله تعالى المتكامل من جميع جوانبه، والشامل لجميع نواحي الحياة. و تشريعاته الخاصة بالعبادات، وكذلك ما يخص المعاملات كلها تلعب دورًا بارزًا ملموسًا في خلق التناغم والأخوة والمحبة بين الناس. وهو مطلب أساسي من مطالب التوجيهات الإسلامية التي نزلت ليعيش بنو البشر على أرض الله تعالى في ود وصفاء ورضى بعيدًا عما يكدر صفو العيش وينغصه. والحق أن محك الصلاح والتدين هي المعاملات، لا كما يرى البعض أنه هي العبادات من صلاة وصوم ونحو ذلك، وهو ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه شهد رجل عنده شهادة، فقال له: «لستُ أعرفك، ولايضرك أن لا أعرفك، ائت بمن يعرفك»، فقال رجل من القوم: أنا أعرفه. قال: «بأي شيء تعرفه؟» قال: بالعدالة والفضل، قال: «فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه؟» قال: لا، قال: «فمعاملك بالدينار والدرهم اللذين بهما يستدل على الورع؟» قال: لا، قال: «فرفيقك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟» قال: لا، قال: «فلست تعرفه»، ثم قال للرجل: «ائت بمن يعرفك». وروى الطحاوي في مشكل الآثار عن عمر بن الخطاب قوله: «قال عمر رضي الله عنه: «لا تنظروا إلى صلاة امرئ، ولا إلى صيامه؛ ولكن انظروا إلى صدقه إذا حدث، و إلى أمانته إذا اؤتمن، وإلى ورعه إذا أشفى، ألا إن الأسيفع أسيفع جهينة رضي من دينه وأمانته أن يقال: سبق الحاج فادان معرضًا، فأصبح قد رين به، فمن كان له عليه دين، فليحضر بيع ماله، أو قسمة ماله، ألا إن الدين أوله هم وآخره حزن».

فالمعاملات هي المحك الذي يعرف به في الواقع صلاح المرء وعدالته، فكلما كان المرء ذا شفافية وصفاء في المعاملات كان أجدر بالقبول عند غيره، وأرجى أن يجلب على المجتمع الأمن والخير والطمانينة والراحة، والنعيم. ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بتوجيهات وأحكام يجب مراعاتها في المعاملات حتى تؤتي أكلها وتجلب الخير والراحة على الناس، ومن هذه التوجيهات والأحكام:

الـصدق في المعـاملات بيعًـا وشراء وأخـذًا وعطاءً ووفاءً واستيفاءً. وهـو مـن أهـم القيم التي تعين على خلق الثقة بين المتعاملين، وازدهار وتطور المعاملة التجارية إن عاجلا أو آجلا. وعلى العكس من ذلك يمحق الكذب البركة في المعاملة، ويسبب انحـسارها وزوالهـا. روى البخـاري في صـحيحه [برقم:٩٨٤] عـن حكيم بـن حزام رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-: «البيعـان بالخيـار مـا لم يتفرقـا - أو قـال: حتـى يتفرقـا-، فـإن صـدقا وبينـا بـورك لهـما في بـيعهما، وإن كـتما وكـذبا محقت بركة بيعهما».

قـال ابـن حجـر (في فـتح البـاري٤/٣٢٩) في شرح الحديث: قولـه: «فـإن صـدقا وبينـا» أي صـدق البائع في إخبار المشتري مثلا وبين العيب إن كان في السلعة، وصـدق المـشتري في قـدر الـثمن مـثلا وبـين العيب إن كـان في الـثمن، ويحتمـل أن يكـون الـصدق والبيان بمعنى واحد، وذكر أحدهما تأكيدًا للآخر. قوله: «محقت بركة بيعهما» يحتمل أن يكون على ظاهره وأن شـؤم التـدليس والكـذب وقـع في ذلـك العقـد فمحـق بركتـه وإن كـان الـصادق مـأجورًا والكـاذب مأزورًا، ويحتمل أن يكون ذلك مختصًّا بمن وقع منه التدليس والعيب دون الآخر. ورجحه ابن أبي جمرة. وفي الحديث فضل الصدق والحث عليه، وذم الكذب والحـث عـلى منعـه، وأنـه سـبب لـذهاب البركـة، وأن عمل الآخرة يحصل خيري الدنيا والآخرة». ورفعت الـشريعة الإسـلامية مكانـة التـاجر الـصدوق الأمـين، فـروى ابـن ماجـه في سـننه [بـرقم: ١٢٠٩] عـن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء».

وقـــال الطيبـــي في شرحـــه عـــلى المـــشكاة (٢١١٨/٧): «حكم مرتب على الوصف المناسب، وهو من قوله تعالى: ﴿وَمَـن يُطِـعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُـولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلـصِّدِّيقِينَ وَٱلـشُّهَدَآءِ وَٱلـصَّٰلِحِينَۚ وَحَـسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًـا﴾ [النساء:٦٩]، وذلك أن اسم الإشارة يشعر أن ما بعده جدير بمن قبله؛ لاتصافه بـصفة إطاعـة الله ورسـوله. وإنـما قلنـا: إن الوصـف مناسـب للحكـم؛ لأن (الـصدوق) بنـاء مبالغـة مـن الـصدق كالـصديق، وإنـما يـستحق التـاجر هـذا الوصف إذا كثر تعاطيه الصدق قولًا وفعلًا، وهذا أخـص أوصـاف النبيـين، وكـذلك (الأمـين) بنـاء مبالغة، فحكمه حكم الصدوق؛ لأن الأنبياء ليسوا غير أمناء الله على عباده، فلا غرو ولا عجب لمن اتصف بهذين الوصفين أن ينخرط في زمرة النبيين والصديقين والشهداء، وقليل ما هم».

وروى مـسلم في صـحيحه [بـرقم:١٧١] عـن أبي ذر، عـن النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قـال: «ثلاثـة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم

ولهـم عـذاب أليـم» قـال: فقرأهـا رسـول الله ﷺ ثلاث مرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

وقال ابن هبيرة في الإفصاح عن معاني الصحاح (١٧٦/٢): «وأما المنفق سلعته فإن غر أخاه وغشه في معاملته، ولم يرض بذلك حتى زاده غرورًا بأن حلف له بالله عز وجل كذبًا، فباع أمانته، وخفر ذمة نفسه، وأسخط ربه فيما فعل من ذلك، ولقد ختم ذلك بيمين فاجرة في شيء زهيد؛ لأن الدنيا بأسرها في هذا المقام حقيرة فكيف لشيء منها».

وروى مسلم في صحيحه [برقم:١٣١]، عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:«الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للربح».

قال القاضي عياض في «إكمال المعلم بفوائد مسلم»(٣١١/٥): قوله: «الحلف منفقة للسلعة ممحقة للربح»: قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فقيل: هذا المحق هو في الآخرة كما تربو الصدقة حتى تأتي مثل أحد، وكذلك يمحق الربا حسناته، إمَّا برجحانه عليه في الميزان أو بهذا من أجلها، أو لأن من تصدق به أو أكل من الربا لا يؤجر، فيه كذلك إثمان لما أخره بالحلف الفاجر وزين به سلعته، وحلف أنني أعطي فيهما ما لم يعط، وغر بذلك كله أخاه المسلم، وقيل: بل المحق في الدنيا والآخرة ممحقة في الدنيا ترفع البركة منه، أو تكون لتسليط الجوائح عليه حتى يمحق. والله أعلم.

ويدخل في ذلك عدم الغش في المعاملات، وهو إظهار السلعة على حال جيدة ولو كانت رديئة فاسدة، بتغيير صورتها أو كتمان ما فيها من عيب ونقيصة؛ لأن العيب إذا ظهر للمشتري لم يرغب فيه. والناس بغض النظر عن ديانتهم وعرقهم ولونهم يكرهون من البائع الغش والخديعة، و يتحاشون عن التعامل معه إذا تبين غشه في معاملته. وقد شدد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النكير على من يغش، وأخرجه من أهل صفة الإيمان، فروى مسلم في صحيحه [برقم:١٠٢] عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللا، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟». قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني».

وقال في شرح رياض الصالحين: «وكذلك أيضا الغش في عهد النبي - عليه الصلاة و السلام- قال: (من غش فليس مني)؛ لكن انظر إلى الناس اليوم تجد أن الغش عندهم أهون الأشياء؛ بل إن بعضهم - والعياذ بالله- يعد الغش من الشطارة في البيع والشراء والعقود، ويرى أن هذا من باب

الحـذق والـذكاء والـدهاء. نـسأل الله العافيـة مـع أن النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تـبرأ مـن الإنـسان الـذي يغـش الناس».

ويـذكر التـاريخ كثيرًا مـن قـصص التجـار الـذين تحاشـوا عـن الكـذب والغـش في المعـاملات مـع عامـة النـاس وخاصـتهم. فـروى الأصـفهاني في «حليتـه» (١٦/٣) عـن أحمـد بـن سـعيد الـدارمي، قـال: سـمعت النـضر بـن شـميل، وسـعيد بـن عـامر، يقـولان: «غـلا الحريـر، وقـال أحـدهما: الخـز، في موضـع كـان إذا غـلا هناك غلا بالبصرة، وكان يونس بن عبيد خزازا، فعلم بذلك، فاشترى من رجل متاعا بثلاثين ألفًا، فلما كان بعد ذلك، قال: لصاحبه: هل علمت أن المتاع كان غلا بأرض كذا و كذا؟ قال: لو علمتُ لم أبع، قال: هلم إلى مالي فخذ مالك، فرد عليه الثلاثين ألفا».

ومن أعجب القصص في ذلك أن امرأة جاءت يونس بن عبيد بجبة خز، فقالت له: اشترها، فقال: بكم تبيعينها؟ قالت: بخمس مئة، قال: هي خير من ذاك، قالت: بست مئة، قال: هي خير من ذاك، فلم يزل يقول:هي خير من ذاك حتى بلغت ألفا، وقد بذلتها بخمس مئة» (حلية الأولياء: ١٥/٣).

وعن زهير، يقول: «كان يونس بن عبيد خزازًا، فجاء رجل يطلب ثوبًا، فقال لغلامه: انشر رزمة، فنشر الغلام الرزمة، وضرب بيده على الرزمة، فقال: صلى الله على محمد، فقال: ارفعه، وأبى أن يبيعه مخافة أن يكون مدحه» (حلية الأولياء: ١٦/٣).

ومن تلك الأحكام أيضًا أن الإسلام أمر بإيفاء الكيـل والميـزان ونهـى عـن التطفيـف فـيهما، وعـن بخس أشياء الناس، فهذا من أعظم أسباب الظلم التي تجلب الحقد والشحناء، وتفكك أواصر المجتمع البشري، ويثير الشحناء والحقد والبغض بين أفراده، فأي ذنب لهذا المشتري المسكين الذي أنفق ماله ليأخذ بدله كاملا غير منقوص؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥].

يقـول الـشيخ شبيرأحمد العثماني في تفسير الآيـة: «إن مراعـاة حقـوق البـشر، وإصـلاح ذات البـين - ممـا لايوليه حتى الصالحون في زماننا إلا قليلا من العناية والتركيز- قد بلغ من الأهمية مبلغًا عظيمًا حتى جعله الله تعالى وظيفة من وظائف رسول من أولي العزم، وهلك على معارضته أمة برمتها. ونبهت هذه الآيات على لسان شعيب عليه السلام أن إلحاق أقل ضرر بالناس، والسعيَ للفساد في الأرض بعد أن سادها الصلاح- سواء كان بالكفر والشرك أو القتل بغير حق والنهب ونحوها- ليس من شيمة المؤمن».

وقال المفتي محمد شفيع في تفسير الآية: «قوله: (ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ): المعنى: لكم الخير والفلاح في الدين والدنيا إن أمسكتم عن فعلاتكم هذه. وفلاح الدين والآخرة ظاهر؛ فإنه يرجع إلى امتثال الأحكام الإلهية. وأما الفلاح في الدنيا فهو أن الناس حين يعلمون أن فلانا من الناس أمين على الكيل والوزن وغيرهما من الحقوق، فإنه يعزز مكانته وصورته في السوق، فتنفق تجارته».

وقال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥﴾ [المطففين:١-٥].

يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: «وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفه ذاته برب العالمين: بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط، والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء؛ بل في كل قول وعمل.

ويقول الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي في تفسير هذه الآية: «إن الحريص على الحياة المادية والدنيا يبتلى بمرض تحصيل شيء من منافع الدنيا بصورة أو بأخرى، وبناء عليه لايتحاشى عن ظلم أحد والاعتداء عليه، ولايبالي بعز وكرامة. ويعيش على تحقيق هدفه القذر في كل مرحلة من مراحل حياته بالخيانة والكذب. وهذا ما كان عليه قوم شعيب فيما يخص التجارة والتبادل، فوعظهم شعيب عليه السلام وقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود:٨٥]... ولكن حذارِ أن يأمن مَن استغرق في حب الدنيا، الأخذَ في الآخرة والعذاب في الدنيا».

وأشار الحديث النبوي إلى العاقبة الوخيمة التي يؤدي إليها التطفيف، فروى ابن ماجه في سننه [برقم:٤٠١٩] عن عبد الله بن عمر، قال: أقبل علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: «يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم».

**محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**

# من ظلال التفسير

## (من سورة الأعراف ١٤٤-١٥٥)

بقلم: **العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله**
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: **أبو عائض القاسمي المباركفوري**(*)

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

أي رغم أنك لم تسعد بالرؤية، ولكن ألا يكفيك أنا أرسلنا رسولا، وأعطيناك التوراة، وكلمناك بالوساطة؟ فخذ ما أعطيناك، وتمسك به، وكن من عباد الله، الذين وصفناهم بالشاكرين.

وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

قيل: كانت التوراة مكتوبة في هذه الألواح. وقال بعض أهل العلم: الألواح غير التوراة، أعطيها موسى عليه السلام قبل نزول التوراة. وأعطي موسى عليه السلام الألواح جبرًا لخاطره إذ فاته الرؤية الإلهية. وهذه الألواح فصلت جميع النصائح والمواعظ والأحكام الضرورية (ابن كثير).

**فائدة:** أي تمسك بدورك بهذه الألواح بقوة، و حذارِ أن تفوتك، وأمر قومك أن يعملوا بما في هذه الألواح من التوجيهات الحسنة، ولايدعوها تفوتهم.

**تنبيه:**

**قوله:** (بِأَحْسَنِهَا) تنبيه إما على أنه ليس فيها إلا ما هو أحسن أو المعنى: ما أعطيت من الأحكام كلها بنفسها حسنة. وكأن فيه حمل لبني إسرائيل على أن يسعوا في كسب العزائم والمندوبات، ويطيعوا الله تعالى كمال طاعته، فإن عصوا أراهم دارالفاسقين، أي النار في الآخرة، والبوار والخزي في الدنيا، أعاذنا الله منهما. (ابن كثير والبغوي)، وقيل: دار الفاسقين هي الشام أو مصر التي كانت بلاد العمالقة أو آل فرعون العصاة. فهذه الآية إذًا تحمل بشارة لبني إسرائيل بأنهم إن أطاعوا كل الطاعة، أعطاهم بلاد الفاسقين، والراجح هو الأول كما رجحه ابن كثير.

سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

الذين يتكبرون على الله ورسوله، ويأبى غرورهم ونخوتهم أن تستجيب لأحكام الله تعالى، سنصرف قلوبهم عن آياتنا، فلا يوفقون للانتفاع بها مستقبلا، وهؤلاء لايحرك ذلك فيهم ساكنًا وإن رأوا ما رأوا من الآيات، ولايسلكون طريق الهدى بالغًا ما بلغ من الوضوح والسعة، وأما طريق الضلال فيهرولون إليه اتباعًا لأهواء أنفسهم. وهذا مصير من يتعود التكذيب ويتشوه قلبه بالتمادي في الغفلة.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

أي لايوفقون لامتثال الأحكام الإلهية، ولايقبل الله منهم ما يأتونه بعقولهم، فكما يدينون يدانون. وأما حسناتهم التي لاروح فيها فينالون في الدنيا من جزائها ما ينالون.

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

هذا الحلي الذي أذابه وصاغه عجلا كان للقبط قوم فرعون، استولوا عليه من بني إسرائيل، كما في سورة طه: (حُمِّلْنَا اَوْزَارًا مِّنْ زِيْنَةِ الْقَوْمِ).

**فائدة:** سيأتي تفصيل قصة العجل هذا في سورة طه، ونبه هنا على سفههم وحمقهم، بأنهم فُتِنوا إذ سمعوا صوت عجل في قالب اتخذوه، واعتبروا العجل إلهًا، في حين لم يكن يحمل صوته اللاغي شيئًا من الخطاب والكلام، ولا إرشادًا في الدين أو الدنيا. ومجرد هذه الصورة لاترفع أحدًا إلى منزلة الإنسانية فضلًا عن منزلة الخالق جل وعلا. فما أظلم و أبعد عن الحقيقة أن جعلوا صوت حيوان عادي إلهًا، والحق أن هؤلاء القوم تعودوا من قبل إطلاق أمثال هذا الكلام في غير وجهه، حيث طلبوا من قبلُ من موسى عليه السلام، فقالوا: (ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ)[الأعراف:١٣٨].

وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

وقد أتوا – لسوء عقلهم وزيغهم- عملًا قبيحًا حيث إنهم لما عاد إليهم رشدهم- بعد أن نبههم موسى عليه السلام- ندموا على فعلتهم هذه، فكأنهم عضوا بنان الندم، وسقط في أيديهم خوفًا وذعرًا. وقالوا: كيف بنا؛ فإن الله تعالى إن لم يرحمنا، ويغفر لنا فإننا في خسران دائم وبوار مستمر.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ

يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾

فإن الله تعالى قد أخبره - وهو في الطور - بأن السامري قد أضل قومه، فأسف موسى وغضب غضبًا شديدًا.

**فائدة:** الخطاب موجه إلى عبدة العجل، أي ما أحسن ما خلفتموني به، فإنكم استبدلتم بالذي كنت أشدد التركيز عليه - وهو توحيد الله تعالى وإفراده - عبادة العجل قائلين: (هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ) [طه:٨٠]. وقد يكون الخطاب موجهًا إلى هارون عليه السلام أيضًا، بأنه لم يقم بواجب الخلافة التي أسندها إليه بقوله: (ٱخْلُفْنِي فِى قَوْمِى) على أحسن وجه، بأن يحبسهم ويواجه هذه الفتنة بقوة، كما سيفصله في سورة طه.

**فائدة:** أي: إنما جئت لأتلقى الأحكام من الله تعالى لصالحكم، وكان الله تعالى ضرب لي مدة أربعين ليلة، ولم تنتظروا حتى تكتمل المدة التي ضربها الله تعالى، وآتيكم بأحكامه سبحانه، ولم يكن الأمد قد طال وامتد،حتى فزعتم واستعجلتم وجلبتم غضب الله تعالى وقهره عليكم (اَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ اَمْ اَرَدْتُّمْ اَنْ يَّحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ فَاَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِيْ) [طه:٨٦].

**فائدة:** رأى موسى عليه السلام مكرهم المشرك، وظن أن هارون ترفق بهم وتساهل في الأمر فغضب غضبًا شديدًا، وجاشت فيه الحمية والغيرة الدينية فلم يملك نفسه حتى خف إلى هارون عليه السلام، وأخذ بشعر لحيته ورأسه انطلاقًا من حرارته الإيمانية المفرطة، ولم يقصد الإساءة إلى هارون والنيل منه -العياذ بالله-، فإن هارون عليه السلام كان بدوره نبيًّا وأسن من موسى عليه السلام بثلاث سنوات. وهيهات أن يصدر من رسول من أولي العزم من الرسل أن يريد الإساءة ولو خفيفة إلى نبي آخر، وهو أخوه، وإنما وقف موسى عليه السلام هذا الموقف حين لم يملك نفسه بغضًا في الله تعالى وغضبًا له من جراء الخيانة الشنيعة من قومه، فظن بهارون عليه السلام أنه ربما لم يسعَ سعيه في إصلاح الحال، في حين أكد عليه الإصلاح. ولاشك أن هارون كان نبيا وأسن من موسى عليه السلام، وإن كان موسى عليه السلام أرفع منزلة منه. وكان هارون عليه السلام تبعًا و وزيرًا له في السياسة وإدارة الأمور، وتجلى بهذه المناسبة مكانة موسى عليه السلام في السياسة والحكمة، فكانت هذه المؤاخذة الشديدة منه لومًا فعليًا منه على التقصير المظنون بهارون عليه السلام، وتضمن ذلك تنبيهًا كاملا لقومه أيضًا على مدى انتشاء قلب الرسول بنشوة التوحيد، ومدى نفوره واشمئزازه من دسائس الشرك والكفر، فإنه لم يصبر حتى على أدنى بادرة من التساهل والصمت في هذا

الـصدد حتـى تـوهم في نبـي مـن الأنبيـاء بأنـه قـصر بعـض التقـصير في رفـع الـصوت ضـد الـشرك، فلـم يمنعـه صـلاحه وجاهـه عنـد الله تعـالى عـن هـذه المؤاخـذة الـشديدة. و عـلى كـل كـان موسـى عليـه السلام معذورًا شرعًا في هذه الحالة. وفي مثل هذا الغضب المفرط وخضم المؤاخذة سقطت من يده الألواح- التي أعطاه الله إياها- وعبر عنه تغليظًا بالإلقاء لعدم أخذ جانب الحذر الشديد في ذلك؛ إذ ظاهره عدم التمكن من الامتثال لقوله: (خُذْهَا بِقُوَّةٍ) أو كما ذهب إليه بعض المفسرين من أنه استعجل في إفراغ يده حين مدها إلى هارون عليه السلام، فتعجل في وضع الألواح في جانب، ولكن هذه الظاهرة - التي حصلت لكل من الأمرين: هارون عليه السلام والألواح - كانت كريهة في صورتها، وإن كان موسى عليه السلام له عذر نيةً و قصدًا. فقال: رَبِّ اغْفِرْلِي، واستغفر إلى الله، سبحانه وتعالى أعلم.

**فائدة:** وكان هارون عليه السلام أخًا شقيقًا لموسى عليه السلام، وإنما نسبه إلى الأم لحمله على الرفق والشفقة. وهذه الآية تتحدث عن معذرة هارون عليه السلام. والحاصل أني قد فهَّمتُهم ما قدرت عليه، ولكنهم لم يبالوا بي؛ بل بدؤوا يستعدون لقتلي، فلاتشمت بي الأعداء بموقفك هذا مني، ولاتجعلني في الظالمين عند عتابك وغضبك.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

أي اغفر لي ما صدر مني من التعدي أو الخطأ الاجتهادي، بالغا ما بلغتُ من حسن النية، واغفر لأخي هارون إن صدر منه تقصير في إصلاح قومه، نظرًا إلى منزلته وعلو شأنه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

هذا الغضب هو المذكور سابقًا في الربع الأول من الجزء الأول من القرآن الكريم في سورة البقرة، أي ليقتل عبدةَ العجل من لم يعبدوه، ولم يساهموا في منع غيرهم، وعلم منه أن عقوبة المرتد في الدنيا هو القتل.

وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

أي مَن فعل سيئةً ولو أشرك وكفر ثم تاب وآمن، فإنه لايعدم الرحمة والمغفرة عند الله الغفور الرحيم. وهذا العفو ونحوه يرجع إلى الآخرة، فكأن فيه إشارة إلى أن ما عوقب به عبدة العجل من القتل كان شرطًا لقبول التوبة في حقهم، (فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ) [البقرة:٥٤]، و لايؤاخذون عليه في الآخرة. وذكر العقوبة الأخروية بعد العقوبة الدنيوية هنا أشبه بقوله: (فَمَن تَابَ مِنۢ

بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ) [المائدة:٣٩]، بعد قوله: (وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ) [المائدة:٣٨].

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّايَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

الأرجح فيما يبدو أن هذا الميقات غير الميقات الذي ضربه لإعطاء موسى التوراة. كما أن ظاهر ترتيب الآيات الحاضرة يوحي إلى أن هذه القصة كانت بعد عبادة العجل، وتعرض العقوبة عليها. وأما قوله تعالى: (فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ) [النساء:١٥٣] فيوضح أكثر أن عبادة العجل جاءت بعد هذه القصة. والله أعلم بالصواب. وسبقت خلاصة هذه القصة في الربع الأول من الجزء الأول من القرآن الكريم في سورة البقرة، فإن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: لانؤمن لقولك حتى نسمعه من الله تعالى مباشرةً. فانتخب موسى عليه السلام سبعين رجلًا – وهم الزعماء والسادة – وأخذهم إلى الطور، فسمعوا كلام الله تعالى، فقالوا: لانؤمن حتى نرى الله تعالى بأم أعيننا من غير حجاب. فزلزت الأرض من تحتهم بهذه الوقاحة، ونزلت عليهم الصاعقة من فوقهم، فارتعدت فرائصهم وماتوا، أو صاروا أشبه بالأموات. فضم موسى عليه السلام نفسه إليهم ودعا الله تعالى دعوة مؤثرة، حاصلها: يا رب، لو شئت أن تهلكهم وإياي أيضًا – فأنا الذي أتيت بهم هنا – أهلكتَهم قبل مجيئهم أو قبل أن يسمعوا كلامك، فمن ذا يحول دون مشيئتك؟ وحيث لم تفعل ذلك؛ بل أذنت لي بإتيانهم هنا و أذنت لهم بسماع كلامك، فكيف يُظنُّ أن تهلكنا جميعًا بعد أن دعوتهم إليك، عقوبة على سفه بعض السفهاء؟ ولاشك أن هذه الرجفة والصاعقة ابتلاء منك لنا، وليس إلا بيدك تثبيت الأقدام أو زعزعتها في مثل هذا الابتلاء والامتحان. وليس غيرك من يأخذ بأيدينا في مثل هذه المواقف الخطرة، ومزال الأقدام. ولا أمل إلا في الذات التي هي منبع الخيرات بأن تغفر لنا ما سبق من التقصير والتعدي منا. واللّٰهم احفظنا من مثل هذه الأخطاء برحمتك أيضًا. فغفر الله تعالى لهم بدعاء موسى عليه السلام، وبعثهم الله تعالى: (ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ) [البقرة:٥٦].

# شبهات و ردود

**(الحلقة ٢)**

بقلم : **المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ
المعروف بـ«حكيم الأمة» المتوفى ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م
**تعريب : محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**

**تقرير الجوابات**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على رسوله سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بعد الحمد والصلاة، قد كررت النظر فيما ذكره السائل، وبما أن خجل الطبيب في تشخيص المرض، وتحديد أسبابه ضارٌ كما يضر الخجل في بيان المرض. فاستلزم ذلك أن نتكلم عليه بكل حرية. فأرى من اللازم أولًا تحديد الأسباب. ومنشأ هذه الخيالات والأفكار – الشبهات- فيما قرأت من تقريرها أمران:

**الأول:** عدم المهارة الكاملة في علم الشريعة.

**الثاني:** استماع خطب اللادينيين وقراءة كتبهم.

فالعلاج الكلي أن يقرأ – حسب فراغه وفرصته – بكل عناية وعلى أقل تقدير ترجمة القرآن الكريم وبعض أبواب مشكاة المصابيح، وكتابا كاملا في الفقه على رجل لبيب. ولايخلي الطريق لكلام وكتابات أدعياء التحقيق والثقافة الجديدة تتطرق إلى سمعه وبصره. والعلاج الجزئي أن يخلو المرء بنفسه وينظر في جواب تقرير الشبهات السابقة -كما سيأتي تفصيلها- بعين من العدل والإنصاف. فالمأمول من الله تعالى أن يكشف هذه الشبهات. ويتحقق إصلاح العقيدة على الفور، وإصلاح العمل مع مرور الأيام. فاسمعوا الجواب التفصيلي المشار إليه آنفا.

**كشف الشبهة الأولى:**

أول مزاعم السائل الكريم أن المنظور الذي ينظر من خلاله علماء الهند في الشريعة واتباع الشريعة لاتمثل شروط الإسلام. واستدل على ذلك بالأدلة التاريخية التي تفيد انقلاب الأمم وثورتها. هل من الإنصاف أن نقول: إن الذين مضت أعمارهم كلها في تحصيل علم من العلوم والرقي فيه، لايستحق نظرهم الاعتبار والقبول، فأنى يحظى نظر مؤرخ في تحقيق أحكام الشريعة بالاعتبار والثقة؟ ثم إن العلماء يسوقون في إثبات دعاويهم كلها آيات

القرآن الكريم وأحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهما كلام الله وكلام رسوله الصادقان-، وأما المؤرخ فلايستدل إلا برأيه وقياسه. ثم ما أعجب أن ينزل قول العلماء من مرتبة الاعتبار، ويترجح رأي صاحب رأي. وليس ذلك إلا لأن جمال الشريعة محجوب عن عين صاحب الرأي، وهذا معنى ما يقال: يجب أن يُنظر إلى ليلى بعين من المجنون. ولا أقنع بهذا العدل المجمل؛ بل أكشف النقاب عن الدليل التاريخي أيضًا.

وخلاصة هذا الحدث التاريخي هو مجرد الموازنة بين ما عليه المسلمون، وبين ما عليه الأمم الأخرى، وعدم إمكانية قيام الدولة الإسلامية من غير لون جديد. وأما دراسة رقي الأمم وانحطاطها، وتحديد أسبابها فأمر زائد عليه. وأما الأمر الآخر فيستحق النظر والعناية، وهو عدم إمكانية قيام الدولة الإسلامية من غير لون جديد، وهذا هو غرض السائل بذكر تاريخ الأمة. فمما لم يستوعبه فهمي أنه ما هو اللون الجديد الذي يعارض الشريعة عند علماء الهند، وهو قوام الدولة والسلطة؟ فإن أراد به الآلات الحربية الجديدة الحارسة للثغور، فمن من علماء الهند حرّمها؟ فإن أوهمت قضية التشبه، فإن قضية التشبه ليست من اختراعات علماء الهند. فقد ورد ذكره في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي، ويشارك في هذا الأمر علماء العالم كلهم. وإذا كان أحد علماء روما وروسيا يخالف ذلك؛ فإن قوله يُترَك لمعارضته القرآن الكريم والحديث الصحيح. وأما أن يتوهم ذلك لعدم تحققه من قضية التشبه فأمر آخر. فالذي يشكل قوام الدولة والسلطة لاعلاقة له بقضية التشبه. وإن كان المراد به الطعام على الكراسي والطاولة، وتعليق الصور في البيوت وغيرها، فلا علاقة لها ببقاء السلطة فيما يبدو. فلم أستوعب هذا اللون الجديد الذي يحرمه أهل الإفتاء، و لاتقوم الدولة دونه.

وإذا كان في الواقع لون جديد يعارض الشريعة، ويتوقف عليه بقاء الدول والسلطة، ويُحتمَل هذا اللون الجديد وقاية من اضطراب الرزق وتشوش القلب، فهلا وزن السائل الكريم ما لله تعالى من العلاقة والحقوق، وثمرات السلطة والثروة الفانية بميزان العقل والعدل، ما الذي تترجح كفته؟ وأنا أسأل: قطع الطريق جريمة في نظر القانون، ولكن لو استمر المرء - بناء على هذه الضابطة القائلة بأنه ما الذي نفعل باعتناق مثل هذا القانون، الذي يسبب الاضطراب والقلق وضيق المال - استمر في قطع الطريق،من غير مبالاة بغضب الدولة إطلاقًا، فما الذي يحكم فيه العقل؟ هل نبيح له قطع الطريق؟ بل يقال: إن الفلس المقرون برضى حاكم الوقت، خير ألف مرة من ثروة مقرونة بارتكاب الجريمة. ويا للعجب، ألا يعدل الله تعالى قدرًا حاكمًا في الدنيا؟

وأقول: لو مررنا بزمن يعز فيه الإبقاء على

السلطة والحكومة من غير ارتكاب الكفر، فأيهما خير؟ الموت مسلمًا أو الحياة كافرًا؟ وأخيرًا لو أن الأمم كلها اتفقت – رغم فسقها وكفرها- وسلبت أمة من الأمم حكومتها، ولم يعُقْ دون ذلك الفسق والكفر، فما دواء اضطراب العيش وتشوش القلب حينئذ؟

أخي الكريم، إن المال والجاه مقصودان عرضًا وضمنًا، والمقصود الأصيل هو رضوان الحق تعالى. فإن أمكن الحفاظ عليهما مقرونًا برضوان الله تعالى، لم يكن به بأس، وإلا فكم يومًا ينفعان؟ ثم ما مصيرهما؟ ألا يحتملون حبس المريض عما يضره؟ ألا يتشوش قلبه ويقلق؟ ولكنهم يؤثرون نعمة الصحة على لذة عدم الحمية العارضة انطلاقا من النظر في العاقبة. والطبيب المشفق لايعدل هذه الكراهية والضيق ذرة من الذرات.

وما استنتجه ثانيًا من أن الإسلام لايعلمنا الحكومة والسلطة؛ بل الذل والتكفف، ففي الواقع لايعلِّم الإسلام سلطة وحكومة مصيرها نار جهنم، ولو أذن بمثل هذه الحكومة لقال حتى فرعون يوم القيامة: علمتني التجارب أن حكومتي لم تكن لتستمر لو لم أدّع الألوهية، ولقيت الذل والهوان بين الناس، فواصلت هذا الادعاء طوال حياتي إبقاء على الحكومة والسلطة، فهل هذا عذر مقبول؟

وأقول على سبيل التنزل: لو أثبت أحد بعرق جبينه أن بقاء الحكومة والسلطة حتم لازم، وأنه لاسبيل إليه إلا بارتكاب المعصية، فاعتبارًا لضرورة بقائها نقول: هذه قضية الإكراه، وقد وضع له الشريعة أحكامًا. حاصله أنه يباح الارتكاب ظاهرًا في بعض الضرورات، ولكن يجب الكراهة والنفور الشديد بالقلب؛ إذ لاحاجة إلى شرح الصدر وطيب القلب، ولا يطلع عليه خلق، حتى يؤاخذه على الكراهية القلبية. إذًا لم يؤذَن بمخالفة الشريعة، وأما المخالفة ظاهرًا، فإنه دخل في قانون الاتباع. ولكن أتساءل: إذا تحققت مثل هذه الضرورة فإنما تتحقق للسلاطين، وأما نحن عامة الناس فأي حكومة وسلطة تفلت من أيدينا حتى نضطر إلى ارتكاب المخالفة. فلاينفعنا ما يواجهه السلاطين والحكام من الضرورة.

ثم قال السائل: لو ذهب ملك الروم يتبع منهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يتيسر له الحكم، فالجواب عنه أن هذا الحكم – أولًا – رجم بالغيب، ولانسلم أنه لايتمكن من الحكومة والسلطة، ولو ذهب أحد إلى دعوى مناقضة له، بأن يقول: إنه يتمكن من الحكم والسلطة على وجه أحسن، فما الدليل على تكذيبه وتفنيده؟

وهذا لايضرنا ولو سلمناه فرضًا، فإن منهج عمر رضي الله عنه يتضمن نوعين من الأمور. الأول: ما هو فرض وواجب، وهذا لايضر السلطة والحكومة أبدًا. والثاني: ما لايجب شرعًا، كالطواف ليلًا، ونحوه، فإن الشريعة لم تكلِّف إياه أصلًا.

فالواجب شرعًا لايضر السلطة والحكومة، وما يعدونه مضرًّا لها ليس واجبا شرعًا. فكيف تصدق الدعوى بأن العمل بالفتوى الشرعية يحول دون إدارة السلطة والحكومة؟

**كشف الشبهة الثانية:**

ثم قال: الدولة اليوم قوامها العلم دون السيف، وأكد ذلك باختراع قنبلة متفجرة. فأقول: أخي الكريم، إن العلم بالبارود والقنبلة يعدل العلمَ بضرب السيف. وإذا لم يطلق على معرفة ضرب السيف علمٌ، فلا وجه لإطلاق العلم على معرفة استخدام القنبلة؟ إذًا إما أن نقول: إن الدولة قوامها العلم في الزمن الماضي، أو لانعدّ للعلم مدخلا في ذلك؟ ولو سلمنا أن الأول لم يكن علمًا وأن الثاني علم، فما فائدته؟ فهذه العلوم لم يعتبرها أحد من أهل الفتوى الهنود مخالفة للشريعة، حتى نتهم علماء الهند بالتنزل والتراجع.

**كشف الشبهة الثالثة:**

أما الحسرة على أن المسلمين لم يقدروا نعمة الله قدرًا، واستدل على ذلك بأنهم لم يستخدموا الماء في وجهه الحق، وإنما اكتفوا ببل العطش، والتوضؤ والاغتسال والتطهر به. وهذا تقرير وبيان أشد إثارة للعجب حسب حسن ظن السائل الكريم. وهذا يدل على أن ما يصرفون الماء فيه اليوم هو أعظم وأهم من الوضوء والغسل. ولا أتساءل في هذا الخصوص إلا أن أقول: هل هذه الصناعات الجديدة أحق بالعناية بها من الوضوء والغسل والطهارة؟ وكيف أرشد الله تعالى على ألسنة أنبيائه عليهم السلام إلى هذه الفوائد الأقل درجةً بهذه العناية الفائقة ثم لَم يُطلع عبادَه على هذه الصنائع آلاف السنين، فما السبب وراء ذلك؟

وثانيًا: حين يسأل الذين استخدموا الماء في الطهارة والغسل ونحوهما عن استخدامهم المشوش له حسب رأي السائل الكريم، فلا بد أن الذين استخدموه في الصنائع الجديدة - وإن لم يصلوا صلاة، وعاشوا حياتهم كلها في الجنابة والخبث - أعظم درجة من غيرهم؛ لأن العمل الأعلى الأفضل يعود لاشيء بالنظر إلى العمل الأدنى. فكان الذين واصلوا ليلهم نهارهم في العبادة من حطب جهنم، وأما الفساق والفجار؛ بل الكفار - والعياذ بالله - في جنة عدن. فهل يقبل ذلك حقًا قلبُ مَن يؤمن بالحساب والكتاب؟

**كشف الشبهة الرابعة:**

وأما أن المسلمين لم يُوْلُوا هذا الجانب عنايةً، فلا علاقة له بأصل الدعوى أي وجوب اتباع الشريعة. ولم يقُل أحد ليومنا هذا أن هذه الأمور مخالفة للشريعة، مهما كان سببه؛ بل لو رجعنا ذلك إلى الكسل وثبَط الهمة -كما هو فحوى السؤال- لم نحتج إلى التخلي عن أصل الدعوى وهي وجوب اتباع الشريعة، فكان التعرض له محض عبث لاطائل تحته.

**كشف الشبهة الخامسة:**

ثم تطرق إلى الجهل بمقاصد الإسلام. وهذا أعجب؛ فإن أحكام الإسلام ومقاصده أشهر وأعرف فربما يعرفها أعداء الإسلام والهندوس المنكرون له، وإن لم يؤمنوا به لسبب من الأسباب.

**كشف الشبهة السادسة:**

أما القول بأن المسلمين قد ابتعدوا كثيرا عما يُدعَون إليه، فعزيزي السائل، من سوء حظ المسلمين أنهم تنكروا لأحكام مالكهم الحق، فهل يستلزم تغيرُ أحوالهم أن يغير الإسلامُ نفسَه، وتسمى اللادينية إسلامًا؟ فيكونوا في عداد المسلمين؟[1]. واعلم أن أحكام الإسلام قد بلغت درجة كافية من الكمال والتمام فلايتطرق إليها التغير والتبديل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فمن آمن بها نجا، ومن أبى فليس له إلا الخسارة الأبدية. وإذا كان من اللازم ألاتبتعد أحكام الإسلام عن أحوال الناس كثيرا، فكيف جاءت جميعُ الرسل والأنبياء ليمنعوا الناس عن عبادة الأصنام في أزمنة يسودها منتهى الخبث والوقاحة. ونص القرآن الكريم على أن نوحًا عليه السلام نشط في صرف الناس عن الشرك، طوال تسع مئة وخمسين عامًا، ولم يخطر بباله - ولا حذَّره الله تعالى من أنه كيف يدعو إلى أمر قد ابتعد الناس عنه أميالا. وإن إنكار الكفرة لم يدفع إلى التخفيف والمجاملة في كلمة التوحيد؛ بل وقع على المنكرين الكفرة عذاب الطوفان. وهذه القصة مصرحة في القرآن الكريم. فهل يجب على أهل العلم أو يباح لهم أن يحرفوا الأحكام أو عليهم أن يواصلوا بيان الحق لوشهد الزمن الحاضر مثل هذا الخبث والوقاحة؟

**كشف الشبهة السابعة:**

قوله: ما يعلِّمه علماؤنا في الدين لانرى من ورائه إلا الذل والهوان فيما نحن من الزمان الخ فيكفينا أن نقول ردًّا عليه: ما يعلمونه هل يوافق الوحي الإلهي أو على حسب رأيهم؟ فإن كان الثاني فهو باطل محض، فإننا نراهم يذكرون الدعوى ويشفعونها بالدليل من الآية والحديث النبوي، فأنى لنا أن نقول: إنهم يعلموننا برأيهم؟ فلابد أن نقول: إنهم يعلمون حسب الوحي، فمن توجه هذا الاعتراض إليه يا ترى؟ أليس ذلك موجهًا إلا إلى الله تعالى بأنه سبحانه يشرع مثل هذه الأحكام التي تجلب الذل والهوان في هذا العصر. فكان رد هذه الشبهة لا من واجب العلماء وحدهم؛ بل يجب على كل مسلم ردها وكشفها.

لننظر إذًا في السبب الأساسي وراء هذا الذل والهوان بعد اتباع هذه الأحكام هل هو النقص في هذه الأحكام أو التقصير من الخلق؟ فإذا تبين ذلك انكشفت آلاف الشبهات؛ بل كلها. وهنا يجب أن ندرك حقيقة العز والذل عند الخلق. فالصفتان ليستا من الموجودات الحقيقية؛ بل من الموجودات الإضافية، أي سمو حالة من الحالات وعِظَمها في

علـم الخلـق واعتقـاده يعني عـز صـاحبها، وكـذلك دناءة حال أحد تعني ذل صاحبها. فعلم منه أن هذه الصفات تخضع لزعم الخلق واعتقاده. ولذلك تجد الرجل العاري الوسِخ كبيرًا في عين معتقده ومريده، وفي عين غيره ذليلا مهينًا. وحيث تبين ذلك فاعلم أن الحالة التي يتطلبها الإسلام توجب العز في عين مـن ينظـر إلى أحكـام الإسـلام بعـين مـن الاحـترام والتقدير، وأما من يراه لغوًا محضًا؛ فإن الأمر الذي كـان يوجـب العـز والتقـدير يوجـب في عينـه الـذل والهوان. فما ذنب الأحكام في ذلك؟وإنما أخطأ الذي يعتقده موجبًا للذل والحقارة.

لننظر بعين من العدل والإنصاف فيما إذا كان عقيدة الرجل باطلة حتمًا، فيرى اتباع الأحكام سببًا للذل والهوان، فهل نتخلى عن هذه الأحكام اتباعًا لعقيدته الباطلة؟ أو نـرى الرجـل مخطئـا في عقيدتـه ونثبت على الحق ونعكف عليه؟ وهَبْ أن رجلا كره الرشـــوة، وكـره الربـا، وكـره الوظيفـة المحرمـة، وعاش على جمع الأحطاب، فما ذنبه في نظر العقل؟ وهـل يجـب عليـه أن يعـصي الله تعـالى ويعـود ذلـيلا مهينـا عنـده سـبحانه بمجـرد أنهـم يحتقـرون هـذه الحالة؟

لقـد أتـى عـلى الأنـدلس حـين مـن الـدهر كـان البقـاء عـلى الإسـلام سـببا للـذل والهـوان، ولم يـأمن الرجـل عـلى نفـسه وعرضـه إلا باعتنـاق النـصرانية. فهـل نـنقم حينئـذ ممـن ثبتـوا عـلى الإسـلام وضـحوا بأعراضـهم ونفوسـهم؟ أو نـنقم مـن الظلمـة الـذين اعتبروا هذه الحالة العزيزة مصدر الذل والغضب؟ و هـل ادخـر الكفـار جهـدًا في إيـذاء الأنبيـاء عليـهم السلام وإهـانتهم؟ ألـم يـسبوهم علنًـا وجهـرًا؟ ألـم يرشقوهم حجارة؟ فلِمَ رضوا بهذا الذل والهوان أمـلا في الجنـة وحورهـا ابتغـاء مرضـاة الله تعـالى؟ ياللأسـف، إن العقـلاء لايتـدبرون مثـل هـذا الأمـر العريض الواضح!.

وإن كانت قلة المـال هو الذل، فليكن السَرَقة وقطاع الطريق - وهم أغنياء كبار- على منتهى العز والكرامة، ولْيَترجَّح السرقة وقطع الطريق - وهي مـن وسـائل المـال الحـرام هـذه - عـلى المـورد القليـل الـدخل. ولم توجـب الـسرقة وقطـع الطريـق الـذل والهوان إلا لأنهما يشكلان جريمة قانونية. فكيف نعد أمرًا اقتضى القانون الإلهي تجريمه سببا للعز والكرامة؟ وهب أن فيه عزا، فهل تلقى هذه الأدلة أذنا صاغية بعد الموت حين يذهب فريسة الصراع؟ والحق أن النـاس بعـضهم لـه الـذل هنـا، و لـه العـز هنـاك، وبعـضهم لـه العـز هنـا والـذل في الآخـرة. فلينظر كل من يؤمن بالآخرة وليرجح أحدهما.

==========

(١) هَبْ أن رجلا قصد مدينة «دلهي»، فأخطأ وأخذ طريقه إلى مدينة «كالكوته»، و بعد ما ابتعد عن «دلهي» مئات الأميال، نبهه بعض النـاس عـلى أن هـذا الطريـق لايـؤدي إلى «دلهـي»، فهـل كـان مـن الـصواب قـول مـن قـال لـه: حيـث ابتعـدت عـن «دلهـي» كثـيرا، فلاترجع إليها؛ بل نسمي «كالكوته» بـ(دلهي)، واستمر في طريقك؟

# تكرار القصص في القرآن

بقلم: الأستاذ / كامل شاهين

عرض القرآن الكريم أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومواقفهم من أقوامهم ومواقف أقوامهم منهم في صور مختلفات منها المبسوط ومنها الموجز، ومنها الذي يناله التفصيل في ناحية منه، ثم تجمل سائر النواحي إجمالا، أو تطوى طيا.

والتكرار في ذاته غير مستحب ولامتقبل؛ لأنه يدل على الجدب ويورث الملالة.. ومن ثم اتخذ ذريعة إلى الطعن في الكتاب العزيز، منذ أول تنزيله، وهجم الكفار على ذلك، بقولهم – فيما يحكي القرآن عنهم-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ وبادرهم الله تعالى بالرد: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا٣٣﴾ (الفرقان:٣٢-٣٣).

فالكفار كانوا يريدون أن ينزل القرآن جملة، كما نزلت التوراة جملة.. أحكامه وقصصه ومواعظه وعبره.. ومن البين أن القصص حينذاك لا تتكرر، والأحكام لا تتغير، والمواعظ تتحدد.. فرد الله عليهم بأن في تنزيله شيئا في أثر شيء تعهدًا لقلب الرسول صلوات الله عليه بالتثبيت والتمكين، وبأن تفريقه يمكن معه إجابتهم عما يسألون، والرد عليهم فيما يدعون.

**ابن قتيبة والتكرار**

وقد تصدى ابن قتيبة للرد على من يتخذ من التكرار مطعنا على القرآن، فقال: كان رسول الله – صلوات الله عليه – يبعث إلى القبائل المتطرفة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم.. فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

وليس شأن القصص شأن الفروض التي كان ينفذها رسول الله إلى كل قوم، فلم تكن تنفذ رسله بقصة موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء[1].

وكلام ابن قتيبة يفيد أن الهدف من التكرار أن يجتمع لكل قوم سائر قصص الأنبياء، فلو نزلت كل قصة مرة واحدة وبصورة واحدة لوقعت لقوم

إحدى هذه القصص، ولآخرين غيرها، فلا تشتهر.

وكأنه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يظن أن سائر القبائل العربية قد بلغها قصة كل نبي في صورة من الصور موجزات أو مفصلة، وليس هذا من حقيقة الأمر في شيء، فالصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا متوفرين على حفظ القرآن، قال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أي جل في عيوننا وعظم في صدورنا».

وكان كبار الصحابة ووزراء النبي ومستشاروه لا يستوعبون القرآن حفظا، قال الشعبي: توفي أبو بكر وعمر وعلي -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- ولم يحفظوا القرآن[٢].

وإذا كان هذا شأن الأعم الأشيع من الصحابة، وكانوا هم السفراء المرسلين إلى القبائل، فإنه لا يبلغ كل قبيلة إلا ما وعاه واليها الذي أرسله صلوات الله عليه إليهم فيحفظون بعض ما يحفظ، ويتعلمون منه بعض ما علم، وقد يكون ما حفظه من قرآن خاليا من بعض القصص؛ بل قد يكون خاليا من القصص كله.

أفيمكن مع هذا أن ندعي أن الغرض من تنجيم القرآن هو إشهار القصص في القبائل، وأن تقع كل قصة لكل قبيلة؟

وقد تحدث غير ابن قتيبة في تخريج التكرار فلم يأتوا بطائل.

**لكل حالة هدف**

ونحن إذا أمعنا النظر ألفينا أن كل قصة تعنى بجانب معين، فهي تقصر هنا لداعية، وتطول هناك لداعية، وهي تلح على جانب من الجوانب؛ لأنه يناسب الغرض الذي سيقت السورة له، وتطوي جانبا من الجوانب؛ لأنه بمعزل عن الغرض الذي تضمنته السورة، فالتكرار في حقيقة الأمر غير واقع؛ لأن لكل قصة منزعًا، وجوا عاما يجري مع السورة، ويندمج مع عزفها اندماجًا لا يصلح له ما جاء في غيرها من السور.

**مع قصة نوح**

فإذا نحن اتخذنا من قصة نوح – عليه السلام – مثلا، ألفيناها تطالعنا في سورة يونس، وفي سورة هود، والمؤمنون، والشعراء والصافات، والقمر، ونوح.

ونحن بحاجة إلى تتبع القصة في كل من هذه السور لنرى مناسبة الجو، والانسياب مع مجرى السورة ووقوعها الموقع المناسب؛ بل الواجب.

**في سورة يونس**

أ- فقصة نوح عليه السلام في سورة (يونس)، تطوى طيا سريعًا، وتخلص إلى ما كان، من نتيجة دعوته الملحة، وتكذيبهم الوقح، وعاقبة ذلك التكذيب من نصرة الله نوحًا ومن معه، وإنجائهم

في الفلك وإغراق المكذبين.

فليس هناك تفصيل للمرادة بين نوح وقومه، وليس هناك حديث من بناء الفلك وحشد المؤمنين والطير والحيوان من كل زوجين، ولا حديث عن فورة الطوفان وتراكب الموج، ونداء نوح لولده إلى آخر ما هنالك. لأن الغرض هو تسلية النبي صلوات الله عليه والتسرية عنه وتنفيس ما كان يناله من هم وكد لإمعان المشركين في الإعراض والتكذيب والتعذيب، وليس في عرض هذه التفصيلات غناء في هذا المجال.

وجملة الأمر أنها تبين للناس أن الله ينصر أنبياءه ومن اتبعهم من المؤمنين ويحيق العذاب بالكافرين.

والذي يشهد لنا أنه قد جاء قبل القصة خطابًا للنبي: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (يونس:٦٥) وجاء في آخرها خطابًا للنبي كذلك ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ (يونس:٧٢)؟!

**في سورة هود**

ب- فإذا نحن انتهينا إلى قصة نوح في سورة هود ألفينا عرضا مبسوطا مفصلا، إذ يعلن لهم أنه نذير من الله، وينهاهم أن يعبدوا غير الله، لأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم، ويجيبه المكذبون من قومه بأنه بشر مثلهم، ولا يغره أن اتبعه بعض الناس، فما اتبعه إلا الأرذلون، ويتحنن نوح إليهم، ويوجههم إلى ما آتاه الله من بينة، وأنه لا يسألهم على الاستجابة مالا، وأنه لا يملك أن يطرد الذين آمنوا به ممن يستدلونهم، فإذا طردهم فإنه جدير ألا يجد من الله نصيرا. ويرد عليهم بأنه لم يزعم لهم أنه يعلم الغيب، ولا يزعم لهم أنه ملك.. فإذا هو يجد ضيقًا به وتحديًا له وإعلانًا من الكفار أنهم لن يستجيبوا له فليفعل ما هو فاعل.

وألفينا بعد ذلك أمرًا بصنع الفلك، وسخرية من الملأ المكذبين، وردًّا فيه تهديد ووعيد من نوح، ويجيء أمر الله فيحمل نوح في السفينة من يحمل، وتسير باسم الله في موج كالجبال، وينادي نوح ابنه ليعتصم بالسفينة، فيجيبه بأنه معتصم بجبل من الجبال.. وتبلع الأرض ماءها، وتمسك السماء ويغيض الماء، وتكون نهاية الظالمين، وتكون هناك مرادة بين نوح وربه، نوح يقول: إن ابني من أهلي، والله تعالى يقول: ليس من أهلك المؤمنين المصدقين، ثم يزجر الله نوحا فيزدجر ويستعيذ بالله ويطلب غفرانه ورحمته، ثم يبارك الله نوحا وطائفته ممن معه، وطائفة أخرى تتمتع بالحياة ثم ينالهم العذاب الأليم.

لماذا هذا التفصيل والإمعان فيه؟ الغرض هٰهنا -والله أعلم- مزدوج، فهناك التسلية وتثبيت

الرسول وهناك أخبار جديدة لم يكن يعلمها الرسول ولا قومه، فهي برهان على نبوة الرسول، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ فهذا هو الغرض الثاني، فأما قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩) فيتضمن الغرض الأول وهو تثبيت الرسول ونفي الحزن عنه.

**في سورة المؤمنون**

ج- فإذا نحن قرأنا قصة نوح في سورة (المؤمنون) بان لنا أن الغرض من ذكرها بيان استمراء الكفار في زعمهم أن الأنبياء لا يكونون بشرا، ويتخذون من ذلك ذريعة لتكذيبهم، وكأن المشركين من قريش قد واجهوا النبي بمثل هذا التكذيب.

والذي يدل لما ذهبنا إليه، أنه قد جاء في قصة نوح من سورة (المؤمنون) ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ (المؤمنون:٢٤).

وجاء في قصة الرسول الذي أرسل بعده ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ (المؤمنون:٣٣-٣٤).

وجاء في قصة موسى وهارون بعد ذلك على لسان فرعون وملئه ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ (المؤمنون:٤٧).

**في سورة الشعراء**

د- أما في سورة الشعراء فقد حدث عنها الدكتور طه حسين في مرآة الإسلام، فقال: وقصة نوح هنا موجزة أشد الإيجاز لا يذكر فيها تفصيل العذاب الذي أخذ الله به الظالمين من قوم نوح، وإنما يكتفي بذكر إغراق الله لهم، ولا يذكر فيها صنع الفلك، وحمل من حمل نوح فيه، ولا وصف الموج ولا ما أصاب ابن نوح من الهلاك..

وإنما تقص السورة الحوار بين نوح وقومه، وإعراض قومه عن دعوته، وإنذارهم نوحا بالرجم إن لم ينته عن دعوته، ودعاء نوح ربه أن ينجيه، ثم ما كان من نجاته وإغراق الظالمين.

فقد اقتصرت القصة هنا؛ لأن ما قصد إليه من القصص كلها في هذه السورة أنما أريد به إلى تذكير المشركين بآيات الله فيمن سبقهم من الأمم، وتخويفهم أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم وإظهارهم على بطش الله بالظالمين.

**في سورة الصافات**

هـ- فإذا تلونا قصة نوح في سورة الصافات،

ألفينا قصة نوح وسائر قصص الأنبياء المذكورة فيها مسوقة لبيان الفوز والنصرة التي لقيها الأنبياء، وللتنويه بهؤلاء الأنبياء، ورفع شأنهم ولذلك اقتصر في قصة نوح على هذه الآيات ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾ (الصافات:٧٥-٨١).

والذي يدل على مذهبنا هذا أن خاتمة القصص ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾.

**في سورة القمر**

و- فأما سورة القمر فهي تبين لنا أن الساعة آتية قريبا، وأن قريشا ترى الآيات فلا تستجيب، وتسمع من أنباء الأمم ما فيه مزدجر فلا تزدجر.. ثم تعرض هذه النذر سريعة متلاحقة، فلا تكاد تبدأ في السورة حتى تندفع في القراءة وحتى تبهرك أحداثها المتصلة المنفصلة التي تنتهي وتترابط معا بهذه الخاتمة اللازمة، التي تتضمن هذا السؤال الذي يقرع القلب وينبه العقل ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾(القمر:٢١)؟ ومن بعد هذا ا لتقرير الجميل مختوما بهذا السؤال الذي يهدأ به القلب، ويستجيب العقل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(القمر:٢٢)؟.

وتأتي قصة نوح فلا تذكر دعوة نوح لقومه، ولا تحننه إليهم، ولا محاورتهم له، ولا تطلعنا على تهديدهم له، ولا على تعويضه لربه.. وإنما تشهدنا نوحا عليه السلام مكذبا متهما بالجنون منتهرا بالشتم وسائر ألوان الأذى. وإذا هو يعلن لربه أنه يائس، ويدعوه إلى أن ينتقم ثم نرى السماء فاتحة أبوابها بالماء المنهمر والأرض تتفجر عيونها فيلتقي ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر، ثم نجد نوحا محمولا على سفينته التي تجري بأمر الله تعالى.

أين سخرية قوم نوح منه؟ وأين اجتهادهم في النفور منه والإعراض عنه وأين محاورة نوح لولده، وأين مناقشة نوح لربه، وكيف غاض الماء بعد انتهاء الطوفان.. كل هذا ليس غرضا من أغراض السورة ولو تناولت شيئا منه لانصرفنا عن الغاية التي يراد الوصول إليها.

فإن الغاية المرادة هي بيان ألوان التعذيب التي تنال المكذبين.. فهناك أسلوب الإغراق لقوم نوح، يتبعه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ (القمر:١٦)، وهناك أسلوب الأخذ بالريح الصرصر في يوم نحس مستمر.. فإذا قوم عاد كأنهم أعجاز نخل منقعر.. يتبعه ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ (القمر:٢١) وهناك الأخذ بالصيحة التي جعلت

ثمـود كهـشيم المحتظـر. وهنـاك أسـلوب الحـصب وطمس الأعين لقوم لوط، وهناك أسلوب الأخذ الجبار لقوم فرعون..

فالغاية التعريف بأساليب العذاب وطرق النقمة التي ينزلها الله بالمكذبين، ثم مساءلة كفار قريش آخر الأمر على سبيل التهكم ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾(القمر:٤٣).

أفترانا لو قرأنا تفصيلا لأحوال دعوة نوح، وتفصيلا لإغراق قومه كنا متصلين بالغاية المنشودة، وهي سرد أساليب العذاب.. أو كنا متصلين بهذه النتيجة، وهي أن كفار قريش ليسوا خيرًا من أولئك المكذبين..

نعم أن هناك تشابهًا بين المسافات في سورة الشعراء، وفي سورة القمر، غير أن الختام مختلف، فبينما تختم كل قصص الأنبياء في سورة الشعراء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴿٩﴾﴾(الشعراء:٨-٩)، نجدها في سورة القمر تختم بقوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴿١٧﴾﴾(القمر:١٦-١٧).

هذا الختام المختلف بين السورتين يبين لنا اختلاف الغرض من القصة في كل منهما، فالغرض من القصة في سورة الشعراء هو تذكير المشركين بما كان من إهلاك الله لمن سبقهم من الأمم، أما الغرض من القصة في سورة القمر فهو بيان أسلوب العذاب وافتنان الله تعالى فيه بين أمة وأمة كما أسلفنا.

**في سورة نوح**

ز- وبقيت سورة نوح، التي تدور من أولها إلى آخرها على قصة نوح، وهي تدور حول شكوى نوح إلى ربه، وبيان اجتهاده عليه السلام في دعوته، واستفراغه الجهد وتلوينه الأساليب، واحتماله الأذى والسخرية والتهديد وإصرار قومه بعد ذلك على العناد والاستكبار، ومعاندة نوح ورب نوح بعبادة آلهة غير الله.. لتصل بعد ذلك إلى حق نوح عليه السلام في دعائه عليهم بالإبادة والبوار.

**ولنا في هذه القصة وقفات**

الأولى: عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴿٩﴾﴾(نوح:٨-٩).

فهو يقول: إني دعوتهم مجاهرة استعلانًا بالدعوة. وإظهارًا للثقة بالنفس، واطمئنانًا إلى ما أعرضه عليهم من رأى.

وهو يقول: إني دعوتهم مسارة تأكيدًا للمودة، واختصاصًا بالنصيحة، وليكون هناك مجال للمناقشة الهادئة، والبعد عن الإحراج الذي يفضي إلى متابعة الجماعة والتورط في خطئها.

والثانية: أنه مزج بين الترغيب المادي وبين الاحتكام إلى العقل. فهو يدعوهم إلى الإيمان لتطول أعمارهم، وتدر السماء عليهم، ويمدون بالأموال والبنين، وتكون لهم الجنات والأنهار..

ثم هو يدعوهم إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، فهذا القمر يمدهم بالنور، وهذه الشمس تمنحهم الضوء والحرارة، وهذه السماوات طبقات، وهذه الأرض بساط ذات سبل فجاج، ووجههم للنظر في أنفسهم حيث خلقهم الله طورًا بعد طور.

والثالثة: أننا نقرأ سرد نوح عليه السلام لاجتهاده في الدعوة ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ (نوح:٨-١٤).

فنرى أنفاسًا متلاحقة، يجذب بعضها بعضا، أو يدفع بعضها في أثر بعض، فلا نكاد ننتهي من آية حتى نندفع إلى الآية التالية لها، كأنها موج متلاحق.

فإذا نحن جئنا إلى آيات النظر والتعقل ألفينا أنفاسا هادئة تدعو إلى الريث والتأمل والفكر ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ (نوح:١٥)، وألفيناها تجيء في صورة التساؤل الذي يدعو إلى الأناة في الإجابة.

وهكذا نجد البيان القرآني يساير الغرض، ويساوق الجو النفسي للموضوع.

والرابعة: أننا نقرأ دعوة نوح إلى إهلاك المكذبين من قومه ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح:٢٦)، فنظن في بدء الأمر أنها صادرة من غيظ نوح من قومه، وعن غيرة نوح على ربه حيث آثر هؤلاء الكفار على عبادته عز وجل عبادة ود وسواع وغيرهما من الآلهة المدعاة.

وما أظن أن الأمر كذلك، فقد دعا نوح على قومه بالهلاك ليكون هلاكهم إجراء وقائيا؛ لأن في بقائهم إضلالًا للمؤمنين، واستكثارًا بذريتهم التي تكفر كما كفروا، وتفجر كما فجروا ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح:٢٧).

وبعد: فلعل النظر المتصل في أمر تكرار القصص يجد العناية الواجبة من المفسرين وخدمة القرآن لنجد تحديدًا أكثر وإضاءة لجوانب هذا الموضوع الجليل.

==========

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٨١/٢٨٢ باختصار.

(٢) الإتقان، ج١ ص ١٢٢.

# حض النبي ﷺ على محوِ العامِّية وتحذيرُه من الفتور في التعليم والتعلُّم

بقلم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

ولا غرابة أن يَتخرَّجَ على يديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا العددُ الجمُّ الغفيرُ من الناس، في فترة وجيزةٍ من الزمن، فإنه قد سَلَك بهم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مسلكَ التعليم الجَماعيِّ المستَنفَر، ودَفَعَهُم إلى مَحْوِ العامِّيَّةِ دَفْعًا، وحَضَّهم على ذلك ونَدَبَهم إليه، وحذَّرهم من الفُتور فيه تحذيرًا شديدًا.

ولذلك أقبَلَ أولئك الناسُ يَتلقَّون العلم، ويَتفقَّهون في الدين، ويُعلِّمُ بعضُهم بعضًا، ويتعلَّمُ بعضُهم من بعضٍ، حتى أزالوا العامِّيَّةَ عنهم في وقتٍ قصير عاجل.

أورد الحافظ المُنْذِري في كتابه «الترغيب والترهيب»، في كتاب العِلْم، في (باب الترهيب من كَتْمِ العلم)، وكذلك الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»، في كتاب العلم أيضًا، في (باب تعليم من لا يَعْلَم)[1] الحديثَ الشريفَ التالي:

عن علقمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أَبْزَى، عن أبيه، عن جَدِّه: عبدِ الرحمن بن أَبْزَى رضي الله عنه قال:

«خَطَب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ، فحمِدَ الله وأَثنَى عليه، ثم ذكَرَ طوائفَ من المسلمين فأثنى عليهم خيرًا، ثم قال:

ما بالُ أقوامٍ لا يُفَقِّهون جِيرانَهم؟! ولا يُعلِّمُونهم؟! ولا يُفَطِّنُونهم[2]؟! ولا يَأْمُرونهم؟! ولا يَنْهَوْنَهم[3]؟!.

وما بالُ أقوام لا يَتعلَّمُون من جيرانِهم؟! ولا يَتَفقَّهُون؟! ولا يَتَفَطَّنون[4]؟!.

واللهِ لَيُعَلِّمَنَّ قومٌ جِيرانَهم، ويُفَقِّهونَهم، ويُفطِّنُونهم، ويَأْمُرونَهم، ويَنْهَوْنَهم. ولَيَتَعَلَّمَنَّ قومٌ من جِيرانِهم، ويَتَفَقَّهُون، ويَتَفَطَّنون، أو لأُعاجِلَنَّهم العقوبةَ في الدنيا.

ثم نَزَل فَدخَلَ بيتَه، فقال قومٌ: من تَرَوْنَه عَنَى بهؤلاء؟ قالوا: نراه عَنَى الأشعريِّين، هم قومٌ فقهاءُ، ولهم جِيرانٌ جُفاةٌ من أهلِ المياهِ والأعراب(٥). فبَلَغَ ذلك الأشعريِّين، فأتَوْا رسولَ الله ﷺ،

فقالوا: يا رسول الله، ذكرتَ قومًا بخَيْرٍ، وذكَرْتنا بشرٍّ، فما بالُنا؟

فقال: لَيُفَقِّهَنَّ قومٌ جيرانَهم[٦]، ولَيُفَطِّنُنَّهم، ولَيَأْمُرُنَّهم، ولَيَنْهَوُنَّهم، ولَيَتَعَلَّمَنَّ قومٌ من جيرانِهم، وَيَتَفَطَّنُون، ويَتَفَقَّهُون، أو لأُعَاجِلَنَّهُم العقوبةَ في الدُّنيا.

فقالوا: يا رسولَ الله أنُفَطِّنُ غيرَنا؟ فأعاد قولَه عليهم، فأعادوا قولَهم: أنُفَطِّنُ غيرَنا؟ فقال ذلك أيضًا.

فقالوا: أمْهِلْنا سَنَةً، فأمْهَلَهم سَنَةً ليُفقِّهوهم، ويُعَلِّمُوهم، ويُفطِّنوهم.

ثم قَرَأ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآيةَ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾[٧]. انتهى[٨].

وقال شيخنا وأستاذنا العلامة الجليل مصطفى الزرقا حفظه الله تعالى في كتابه العظيم «المدخل الفقهي العام»(٩)، تعليقًا على هذا الحديث الشريف ما يلي: «إنَّ هذا الموقف العظيم في اعتبار التقصير في التعليم والتعلُّم جريمةً اجتماعية، يَستحقُّ مرتكبُها العقوبةَ الدنيوية: موقفٌ لم يَرْوِ التاريخُ له مثيلًا في تقديس العلم، قبلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا بعدَه.

ويَدخل في ارتكاب المنكَر واستحقاقِ العقوبةِ التعزيريةِ عليه: إهمالُ الواجباتِ الدينية، ومن جملتِها: التعليمُ والتعلُّم. فإذا قصَّر العالم في واجب التعليم، أو قصَّر الجاهلُ في تعلُّم القدر الواجب شرعًا من العلم: استَحَقَّا عقوبةَ التعزير على التقصير، فإنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«طلَبُ العلم فريضة على كل مسلم»[١٠].

ولفظُ (المسلم) هنا: يَشمَلُ الرجلَ والمرأة، لأن الحكمَ مَنُوط بصفةٍ مشتركةٍ هي الإسلام». انتهى كلامُ شيخنا مصطفى الزرقا أمتع الله به ورعاه.

وأُضيفُ إليه فيما يتعلَّق بحديث «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم»: أنه لما ناط النبي ﷺ فَرْضَ طلبِ العلم باتصافِ المرء بالإسلام – رجلًا كان أو امرأةً –، كان في ذلك تنبيهٌ منه ﷺ على أن كل من انتَسَب إلى الإسلام لزِمَه طلبُ العلم وتحصيلُه، إذ لا جَهْلَ في شِرْعةِ الإسلام الذي أوَّلُ كلمةٍ من كتابه نَزَلَتْ تقولُ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ (علق:١-٥).

**إمامة سريعة بكمالاته ﷺ في التعليم وخُلُقِه العظيم**

هذا، ونحن الذين نُحبُّ أن نتملَّى من هذا

المعلِّم الأوَّل والنبي الأُمِّي الكريم، من كل جانب من جوانب هَدْيه في الوسائل والغايات جميعًا، لا تتسعُ لنا هذه الصفحات لأكثرَ من أن نَمُرَّ ببعض أساليبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التثقيف والتعليم، أما الأهدافُ الكبرى التي وجَّه إليها هذا المعلِّمُ الكبير، فللحديث عنها مجالاتٌ أخرى، نسأل الله تعالى التوفيقَ للنهوض بها.

هذا المعلِّم للخير صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على أنه أُمِّيّ لا يقرأ ولا يكتب - قد مَنَحه الله تعالى العلمَ الذي لا يُدانِيه أحدٌ من البشر، وأتَمَّ عليه النعمة بما آتاه من شخصيةٍ فَذَّة جامعةٍ فريدة، وامتَنَّ عليه بقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[11].

فَنَهض ﷺ يَنشُرُ العلم في الناس ويُذيعه بينهم، وكان بحقّ المعلِّمَ الأوَّلَ للخير في هذه الدنيا، في جَمالِ بيانه، وفَصاحةِ لسانه، ونَصاعةِ منطقه، وحَلاوةِ أسلوبه، ولُطفِ إشارته، وإشراقِ رُوحه، ورَحابةِ صدره، ورِقَّةِ قلبه، ووَفْرةِ حَنانه، وحَكِيم شِدَّتِه، وعظيم انتباهه، وسُموِّ ذكائه، وبالغِ عنايته، وكثيرِ رِفْقه بالناس، حتى قال ﷺ: «إنما بُعثتُ مُعلِّمًا»[12].

**تحذيرُه ﷺ من العلم الذي لا ينفع**

وقبلَ الدخول في بيان أساليبه في التعليم، أَرى من المناسب أن أذكر كلمةً وجيزة في حَذَرِ هذا المعلِّم الكريم وتحذيرِه من العلم الذي لا يَنفع، حتى جَعَل ذلك دُعاءً له يدعو به في أكثر أحيانه ﷺ.

روى مسلم[13] عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللَّهمَّ إني أعوذُ بك من علمٍ لا يَنفع[14]، ومن قَلْبٍ لا يَخشع، ومن نَفْسٍ لا تَشبع، ومن دَعوةٍ لا يُستجابُ لها».

وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معلِّمًا بحالِهِ ومَقالِه جميعًا، فهذا الدعاء منه تعليمٌ للعالِمِ والمتعلِّم جميعًا أن لا يَتعلَّموا أو يعلِّموا إلَّا ما فيه نفعٌ بميزان الشرع الحنيف الأَغرّ.

**كلمة وجيزة عن شخصيته التعليمية**

كما أرى من المناسب أيضًا أن أذكر كلمةً وجيزة عن شخصيته التعليمية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تُعرِّفنا بتلك النفس الكريمة، التي مَنَحها الله تعالى لرسوله، لتَصنعَ الخيرَ للناس، وتُبلِّغَ الدينَ للبشرِ كافة.

لقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرأفةِ والرحمة، وتَرْكِ العَنَتِ وحُبّ اليُسر، والرِّفقِ بالمتعلِّم، والحِرصِ عليه، وبَذْلِ العِلم والخيرِ له في كل وقتٍ ومناسبة: بالمكانِ الأسمى والخُلُقِ الأعلى، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[١٥] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١٦].

وروى البخاري ومسلم[١٧] - واللفظ للبخاري- عن مالك بن الحُوَيرث رضي الله عنه، قال: «أَتَيْنا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ مُتَقاربون[١٨]، فأقمنا عنده عِشرين ليلة، وكان رسولُ الله رَحِيمًا رَفِيقًا، فلما ظَنَّ أنَّا قد اشتَقْنا أَهْلَنا، سأَلَنا عمن تركْنا بعدَنا فأخبرناه، قال: ارْجِعُوا إلى أهلِيكم، فأقيموا فيهم، وعَلِّموهم ومُرُوهم، وصَلُّوا كما رأيتمُوني أُصلِّي، فإذا حَضَرتْ الصلاةُ، فلْيُؤَذِّنْ لكم أحدُكم، ولْيَؤمَّكم أكبرُكم»[١٩].

وروى الترمذي في «الشمائل»[٢٠] عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان رسولُ الله ﷺ يَسْرُدُ كسَرْدِكم هذا[٢١] ولكن كان يَتكلَّمُ بكلامٍ بَيِّنٍ فَصْل[٢٢]، يَحفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إليه».

ورَوَى فيها أيضًا[٢٣] عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعِيدُ الكلمةَ ثلاثًا لِتُعقَلَ عنه»[٢٤].

ورَوى فيها أيضًا[٢٥] عن الحَسَن بن علي رضي الله عنهما، قال: سألتُ خالي هِنْدَ بن أبي هالة، وكان وَصَّافًا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ: صِفْ لي رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال:

«كان رسولُ الله مُتَواصِلَ الأحزان[٢٦]، دائمَ الفِكْرة، ليسَتْ له راحة، طَوِيلَ السَّكْت، لا يَتكلَّمُ في غير حاجة، يَفْتَتِحُ الكلامَ ويَختِمُه باسم الله تعالى، ويَتكلَّمُ بجوامع الكَلِم[٢٧].

* * *

**الهوامش:**

(١) «الترغيب والترهيب» ١: ٨٦، و«مجمع الزوائد» ١: ١٦٤. وذكره السيوطي في «الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور» ٢: ٣٠١ فقال: «أخرج ابن رَاهُوْيَه والبخاري في «الوَحْدَانيَّات»، وابن السَّكَن وابن مَنْدَه والبَاوَرْدي في «معرفة الصحابة»، والطبراني وأبو نعيم وابن مَرْدُوْيَه، عن ابن أبْزَى، عن أبيه...». وقد صحَّحتُ بعض ما وقع في هذا الحديث، من تحريفٍ في بعض الكتب عن بعضها.

(٢) في رواية «الترغيب والترهيب» هنا وفي كل ما يأتي: (ولا يَعِظُونهم).

(٣) أشار النبي ﷺ بقوله: (ما بال أقوام لا يُفَقِّهون جيرانهم...)، إلى عِظَم حقهم على إخوانهم العالِمين، وجيرانهم العارفين، وذلك لحق أُخوَّة الإسلام بينهم، ولحقّ الجِوار معها أيضًا.

وحقُّ الجوار في الإسلام كاد يكون بمنزلة حق الرحم الموجِب للميراث: «ما زال جبريل يُوصيني بالجار، حتى ظننتُ أنه سيُوَرِّثُه». فقد نبَّه عليه الصلاة والسلام بهذا على أن الجار قارَبَ أن يكون وارثًا من مال جاره، بسبب الجوار، وهو قُربُ الدار.

وللجوار مراتب: منها المُلاصَقَة، ومنها المخالَطَة، بأن يَجمعهما مسجدٌ أو مدرسة أو محلة أو سوق أو نحوُ ذلك، والميراث قسمان: حِسّي ومعنوي، فالحِسيّ هو المال، والمعنوي هو العلم، فإن حقَّ الجار على جاره تعليمُه ما يجب

وما ينفع، وأنفَعُ ما ينفع هو العلم، فهو من آكد حقوق الجار على الجار، صلواتُ الله وسلامُه على معلِّم الناسِ الخيرَ، وهادي البَشَرِ جميعًا.

(٤) في «الترغيب» هنا وفي كل ما يأتي (يَتَّعِظُون).

(٥) أي من سُكَّان البادية.

(٦) وفي روايةٍ: (وليُعَلِّمَنَّ).

(٧) من سورة المائدة، الآيتان ٧٨-٧٩.

(٨) قال الحافظ ابنُ السَّكَن: «إسنادُ هذا الحديث صالح»، كما نقله في «كنز العمال» ٣: ٦٨٥، وقال الحافظ المنذري: «رواه الطبراني في «الكبير» عن بُكَير بن معروف، عن علقمة».

وقال الحافظ الهيثمي: «رواه الطبراني في «الكبير» وفيه بُكَيْر بن معروف، قال البخاري: ارْمِ به، ووَثَّقَه أحمد في رواية، وضعَّفه في أخرى. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به».

فعلى هذا يكون سَندُ الحديث ضعيفًا إن لم نَعتَدَّ بالرواية عن أحمد في توثيقه، وإن اعتَدَدْنا بها فهو حديثٌ حسن أو يُقارِبُ الحَسَن. وهذا الذي جَزَم به الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» فإنه أورده فيه بلفظ «عَنْ علقمة...».

واصطلاحُه في هذا التعبير كما أفصَحَ عنه في أول كتابه ص ٣ بقوله: «فإذا كان إسنادُ الحديث صحيحًا أو حسنًا أو ما قاربهما: صدَّرتُه بلفظة (عن). وإذا كان في الإسناد من قيل فيه: كذَّاب... أو ضعيفٌ فقط، أو لم أر فيه توثيقًا بحيث لا يَتطرَّقُ إليه احتمالُ التحسين: صدَّرتُه بلفظة (رُوي). ولا أذكر ما قيل في ذلك الراوي البتة. فيكون للإسناد الضعيف دلالتانِ: تصديرُه بلفظة (رُوي)، و: إهمالُ الكلام عليه في آخره». انتهى.

فالحديثُ حسنٌ أو يُقارِبُه عند الحافظ المنذري. والحمد لله رب العالمين.

(٩) ٢: ٦٤١ من الطبعة السابعة، في الفقرة ٣٣٥.

(١٠) رُوي بطرقٍ كثيرةٍ، وقدحسَّنها الحافظ المِزِّي، وحَكَم السيوطي رحمه الله تعالى بصحته، وقد جَمَع في طرقه جزءًا، كما في «فيض القدير» للمناوي ٤: ٢٦٧.

(١١) من سورة النساء، الآية ١١٣.

(١٢) رواه ابن ماجه ١: ٨٣. وتقدم بتمامه في ص ٨-١٠.

(١٣) ١٧: ٤١ في كتاب الذكر والدعاء (باب في الأدعية).

(١٤) هو العلمُ الذي يؤدِّي إلى ضرر لصاحبه أو لغيره من الناس، فهو مذموم من حيث ما يؤدِّي إليه، إذ الوسيلةُ إلى الشَّرِّ شرٌّ بلا ريب. فالعِلمُ بالحِيَل والإفساد والطُّرقِ التي يَتمكن بها عالِمُها من إضاعة الحقوق: مذمومٌ يُتعوَّذُ بالله منه، وكذلك العِلمُ الذي يَتمكن به صاحِبُه من سَرِقَةِ أموال الناس والسطوِ عليها وطمسِ آثار الجريمة فيها: عِلْمٌ لا يَنفع، وهو شرٌّ لا ريب فيه.

فمِثلُ هذا العلم أو ذاك، الجهلُ به أحسَنُ على الإنسان مآلًا من العلم به، ولا يُنكَرُ كونُ بعض العلم ضارًّا لبعض الناس، كما يَضرُّ لحمُ الطير وأنواعُ الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع، بل رُبَّ شخص ينفعه الجهلُ ببعض الأمور.

وكم من إنسان خاضَ فُضُولًا منه في علم لا حاجة له به، فاستَضَرَّ به في دينه أو دنياه، وأضاع فيه جزءًا كبيرًا من عمره الذي هو أنفسُ ما يملكه، وذلك غايةُ الخُسران. وما كان أغناه عن مثل هذا العلم الفضولي، الذي لو لم يَخُض فيه لكان خيرًا له، فاللّهمَّ علِّمنا ما ينفعنا، وانفَعْنا بما علَّمتَنا، وجَنِّبنا ما يَضرُّنا في دِيننا أو دُنيانا، يا أرحم الراحمين.

(١٥) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٢: ٤٠٣: «أي يَعَزُّ عليه - ويَشُقُّ - الشيءُ الذي يُعَنِّتُ أُمَّتَه ويَشُقُّ عليها، ولهذا جاء في الحديث المرويّ من طُرق عنه ﷺ قولُه: بُعِثتُ بالحَنِيفيَّةِ السَّمْحَة».

(١٦) من سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(١٧) البخاري ٢: ٩٣ في كتاب الأذان (باب الأذان للمسافرين)، ومسلم ٥: ١٧٤ في كتاب المساجد (باب من أحق بالإمامة).

(١٨) الشَّبَبة جمعُ شابّ. ومتقارِبون أي في السِّنّ والعُمر.

(١٩) في هـذا الحـديث الـشريف مـن الأمـور التعليميـة: ارتحـالُ الـشباب جماعـة إلى العـالِم، لِيتلَقَّوْا منه العِلـم، وليأخـذوا عنه الفِقه في الدين، ولِيَصْطحِبُوه فترة من الزمن، فيَشهدوا منه سُلوكَه، وهَدْيَهُ وعَمَله، فتَستنِيرَ بذلك أفهامُهم بقُربهم منه ومُلازمتِهم له، ويأخذوا العلم مصحوبًا بالعمل به، فيكون أوضـحَ في نفوسـهم، وأطيـبَ في سـلوكهم، كـما كـان شـأن صحابة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معه.

وفي هـذا الحديث أيضًا النظرُ إلى ذاته الشريفة صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التي هي مَجْمَعُ القُدوة ونَموذج الإنسان الكامل. وفيه أيضًا: تعلُّـم أحكـام الـشريعة منـه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفيـه أيـضًا: أن الأفضل بـالمتعلِّم أن يقـصد مـن علـماء عـصره: الأوفى علـمًا، والأعلى فهمًا... فقد كان آباءُ هؤلاء الشباب صَحابةً لرسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، التَقَوْا به وأَخَذُوا عنه، وعَلِموا منه، فما اكتفَى هؤلاء الشباب بالأخذ منهم؛ بل قَصَدوا سيدَ العلماء، وتاجَ الأنبياء، وأعلمَ البَشَر صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وخَـصَّ رسـولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هنـا: الأكـبرَ بالإمامـة للصلاة فيهم، نظرًا إلى تساويهم في العلم والتعلم منه عليه الصلاة والسلام، فإذْ تساوَوْا في ذلك كان وصف الكِبَر فيهم صفةً مميزةً للكبير على من دونه في السن، فيُقدَّمُ الكبير. أما إذا كان بعضُهم أعلمَ من بعض فيقدَّمُ الأعلمُ على من سواه؛ لأن صفة العلم أعلم وأشرفُ من صفة كِبَر السن. وانظر حقوق صفة الكِبَر وصفة العلم في كُتَيِّبي: «من أدب الإسلام»، في الأدب ١٦، ١٧، ١٨.

(٢٠) ص ١٤٠.

(٢١) أي ما كان يأتي بالكلام متتابعًا يَستعجل بهِ، فإنه – إذا كان كذلك – يُورِثُ لَبْسًا على السامعين، ولا يُمكنُهم من فَهْمِه وحفظه.

(٢٢) أي ظاهرٍ واضحٍ مفصولٍ متميزٍ بعضُه من بعض، بحيث يَتَبيَّنُه من يَسمعُه، ويُمكنُه عَدُّه لو أراد عدَّه مثلاً. وهذا أدْعَى لحفظه ورُسوخِه في ذهن السامع، إذْ يَتروَّاه تَرَوِّيًا، فلا تَبقَى له فيه شُبهةٌ ولا غموض.

(٢٣) ص ١٤٠.

(٢٤) أي لـتُفهَم عنـه، وتَثبُـتَ في ذهـن الـسامعين. وذلـك لكـمالِ هدايتـه وشـفقتِه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأُمَّتِـه عامَّـةً، وبـالمتعلِّمين خاصَّة. ويَدُلُّ هذا الحديث الشريف على أنه ينبغي للمعلِّم أن يَتمهـل في تقريـره لمـا يُعلِّمُـه، ويَبـذُلَ الجهـدَ في بيانـه، ويُعيـدَه حتى يُفهمَ عنه.

(٢٥) ص ١٤١-١٤٣.

(٢٦) قـال العلـماء: ليس المـرادُ بهـذا: التـألُّمَ على فَوْتِ مطلـوب أو حصولِ مكروه من أمور الدنيا، فإن هذا لم يكن من حال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل المرادُ: أنه كان دائم الاهتمام والتفكير فيما يستقبله من الأمورِ العظيمة، وشؤونِ الدعوة إلى الله تعالى، وجَلْبِ الناس إليها وإدخالِهم فيها، مع ما هو عليه من جهادِ المشركين، وتعليم الجاهلين، والقيامِ بعبادة الله تعالى على أكملِ وجه. ويُفسِّرُ ذلك قولُ واصِفِه بعدَ هذه الجملة: «دائِمَ الفِكْرَة، ليسَتْ له راحة، طويلَ السَّكْت».

وهذه حالُه في نفسه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وسيأتي قريبًا في ص ٢٨ أنه كان في مجلسه مع الناس دائم البِشْر...

(٢٧) أي يَتكلَّمُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالكلماتِ القليلة، الجامعةِ للمعاني العظيمةِ الكثيرة، مِثلُ:

١- قولِهِ: «الدِّين النَّصيحَة».

٢- وقولِهِ: «احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْك».

٣- وقولِهِ: «اتَّقِ الله حيثما كُنت».

٤- وقولِهِ: «الحَلالُ بَيِّن، والحَرامُ بَيِّن».

٥- وقولِهِ: «إذا لم تَسْتَحِ فاصنَعْ ما شِئتَ».

٦- وقولِهِ: «دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك».

٧- وقولِهِ: «إنَّ الله كَتَبَ الإحسان على كلِّ شيء».

# في صحبة المكفوفين

بقلم: الشيخ أحمد الشرباصي

حينما نستنبئ التاريخ نجد أنه قد ضم في صفحاته كثيرين من كبار المكفوفين الذين كان لهم مكان ملحوظ ومركز ممتاز، ويستوي في ذلك التاريخ البعيد والتاريخ القريب، فنحن نجد في الأنبياء مكفوفين مثل إسحاق ويعقوب وشعيب عليهم السلام، نعم قد وقع خلاف في جواز العمى على الأنبياء، فمنعه بعضهم؛ لأن مقام النبوة أشرف من ذلك، ولأنه لم يرد نص قطعي الدلالة بعمي إسحاق وشعيب، ويقول البعض الآخر: فكيف بقول الله عن يعقوب: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ (يوسف:٨٤) وقوله عنه: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرًا﴾ (يوسف:٩٧). إن هذا يفيد سبق العمي، ولا ينفع التأويل بأن قوله: ﴿ٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ كناية عن غلبة البكاء وامتلاء العين بالدموع.

ومن أشراف العرب وعظمائهم قبل الإسلام مكفوفون، منهم عبد المطلب بن هاشم والحكم بن العاص وزهرة بن كلاب وكلاب بن مرة ومطعم بن عدي، وغير هؤلاء.

ومن كبار الصحابة في الإسلام مكفوفون، نذكر منهم أبا قحافة والد أبي بكر الصديق وكعب ابن مالك الأنصاري وقتادة بن النعمان والبراء بن عازب وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن الأرقم وعمرو بن أم مكتوم ومالك بن ربيعة ومخرمة بن نوفل وعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ وتراجم هؤلاء مبسوطة في مختلف المصادر القديمة والحديثة، وهي تفيض بالمآثر والمفاخر.

ومن كبار التابعين مكفوفون مثل عطاء بن أبي رباح وأبي هلال الراسبي وقتادة بن دعامة وأبي عبد الرحمن السلمي، وهؤلاء معارف في تاريخ الإسلام وليسوا بنكرات...

ومن كبار الأئمة والفقهاء والعلماء مكفوفون، وحسبك أن تتذكر هنا هذه الأسماء الخالدة: الشاطبي، الترمذي، النيسابوري، العكبري، والشنتري، وأبو زكريا البغدادي.

ومن عظماء شعراء العربية مكفوفون، حسبنا منهم هنا علمان لايخفيان على ناظر وهما أبو العلاء المعري وبشار بن برد.

وفي التاريخ القريب نجد كثيرًا من الأزهريين النابغين اللامعين كانوا مكفوفين مثل يوسف الدجوي، وإبراهيم الأبياري، ومحمد المعداوي،

ومحمد حسنين البولاقي (والد المرحوم أحمد حسنين باشا) وأحمد الزين. ومن الأزهريين المعاصرين النابهين نجد مكفوفين، فهذا هو الدكتور طه حسين باشا الذي لم يمنعه كف بصره عن الجمع بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية، ولا عن تعلم اللغات القديمة والحديثة ولاعن الإنتاج الأدبي الهائل، ولا عن مركز الوزارة نفسه..

وهذا هو الشيخ الصاوي شعلان يعد مثلا من أمثلة نبوغ المكفوفين، فهو قد أتم دراسته الأزهرية، ثم برع في دراسته الجامعية، ثم مهر عدة لغات وهو يجيد الشعر والنثر خطابة وكتابة، وهذا أخونا محمد العلائي، كان زميلا لنا في الدراسة الأزهرية، ثم التحق بكلية الآداب وهو مكفوف فأتم دراسته بها، ثم سافر إلى «إنجلترا» يتلقى العلم في معاهدها، ولا يزال هنا يتابع خطواته الموفقة في سبيل الحصول على درجاته العلمية الفائقة.

ولم نقصد حين ذكرنا كل هذه الأسماء بعد أن نظمناها، وقد كانت مبثوثة متفرقة في شتى المصادر، أن نقول: إن هؤلاء جميعًا ولدوا مكفوفين، أو أصابهم كف البصر منذ الصغر، فقد اختلفت أحوالهم من غير شك، فبعضهم ولد أعمى، وبعضهم كف بصره صغيرا. وبعضهم أصابه العمى كبيرا، ولكنهم على أية حال يعدون في ثبت المكفوفين.

* * *

وكف البصر كما نريد أن نؤكد في الأذهان ليس إلا نقصا حسيا في ناحية من نواحي الجسم، ومن الممكن تعويض هذا النقص بالمثل أو بأكثر منه؛ لأن الخالق سبحانه إذا سلب عبدًا نعمة عوّضه عنها مثلها أو خيرًا منها، ومن هنا نرى الكفيف لايعوقه كف بصره عن القيام بواجبه في حياته، لأنه يكون عادة حاد اللمس والسمع والنطق والفهم، ومن حدة لمسه أنه يميز بين الأشياء المتشابهة والأدوات المتماثلة بلمسها، ولو أغمض البصير عينيه وأراد ذلك لما استطاع، ومن حدة سمعه أنه يسمع الهمس البعيد والنجوى الخفية، ومن حدة نطقه أنه يكون جهير الصوت يسمع الجم الغفير ولذلك يجلجل صوته إذا خطب أو وعظ، ويقرع الأسماع بنبراته، ومن هنا قال إبراهيم بن هانئ: «من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى، ويكون شيخا بعيد مدى الصوت»، ومن حدة فهمه أنك ترى المكفوف أسرع إلى الإدراك وأعجل في التحصيل وأدق في التمييز العقلي من مثله البصير، كما أنه مما يوضح ذلك أننا نرى كثيرين من المكفوفين يبرعون في الخياطة وغير ذلك من دقائق الأعمال، كما قد يمر بنا تبيانه في مستقبل الكلام.

ولقد قال صلاح الدين بن أيبك الصفدي: «قل أن وجد أعمى بليدا، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكي (ثم ذكر أسماء عميان عظماء ثم قال): والسبب الذي أراه في ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه، ولا يعود متشعبا بما يراه، ونحن نرى الإنسان

أراد أن يتذكر شيئًا نسيه أغمض عينيه وفكر، فيقع على ماشرد من حافظته، وفي المثل: أحفظ من العميان، أورده الميداني في أمثاله».

ولا يحسبن أحد أن إدراك ذلك مما يغيب عن المكفوفين أنفسهم؛ بل لعلهم أسبق من سواهم في الوقوف عليه والتنويه به، قال رجل للقاسم بن محمد الضرير: لقد سلبت أحسن وجهك، فقال: صدقت غير أنى منعت النظر إلى ما يلهي. وعوضت الفكرة فيما يجدي. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه بعد أن كف بصره:

إن يأخذ الله من عيني نورهما
ففي لساني وسمعي منهما نور
قلبي ذكي، وعقلي غير ذي دخل
وفي فمي صارم كالسيف مأمور

وقال الخريمي الضرير:

فإن عيني خبا نورها
فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبي ولكنما
أرى نور عيني لقلبي سعى

وما أبرعه من تعبير، وما أدقه من معنى، حيث قال: إن نور عينه قد سعى من باصرته إلى بصيرته، فكان ذلك من الله خير تعويض!... وقال أبو علي الأعمى:

لئن كان يهديني الغلام لوجهي
ويقتادني في السير إذ أنا راكب
فقد يستضيء القوم بي في أمورهم
ويخبو ضياء العين والرأي ثاقب

وقال عزالدين أحمد بن عبد الدائم:

إن يذهب الله من عيني نورهما
فإن قلبي بصير ما به ضرر
أرى بقلبي دنياي وآخرتي
والقلب يدرك مالايدرك البصر

ومما يزكي هذه البصيرة في الأعمى ماجاء على لسان النبوة في قصة الأبرص والأقرع والأعمى، وهي في البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة في بني إسرائيل – أبرص وأقرع وأعمى – فأراد الله أن يبتليهم فبعثت إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس. فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطى ناقة عشراء. فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس. قال: فمسحه فذهب عنه، وأعطى شعرا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال البقر، فأعطى بقرة حاملا فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس قال: فمسحه فرد الله إليه

بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطى شاة والدًا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، قال: قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك - بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيرًا أتبلغ عليه في سفري. فقال: الحقوق كثيرة. فقال (الملك) له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرًا فأعطاك الله فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر. فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل مارد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ماشئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله. فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي عنك، وسخط على صاحبيك...

أرأيت كيف أجدى المعروف في المكفوف، وقد شكر أنعم الله حين جاءته وكيف استحق على لسان النبوة أن يكون صاحب الحكمة بين قرينيه، والفائز بالخير بينما خسره الآخران؟... أليس في ذلك إيحاء من طرف دقيق خفي بأن المكفوف يستحق التكرم؛ لأنه لا يضيع عنده المعروف؟.

* * *

والمكفوف من الناحية لا يتأخر كثيرا عن البصير، ولا يوجد بينهما من الفروق إلا ما يقتضيه هذا النقص الحسي، فالأعمى من ناحية الشرع يلي النكاح، ويكاتب، ويؤم الناس في الصلاة، ويجتهد في الأوقات والأواني ويبيع ويشتري، ويحل له الصيد بالكلب والرمي، ويجوز ذبحه إذا فعله وإن كره، ويصح أن يكون وصيا، وتصح منه المساقاة، وتجب عليه الجمعة إذا وجد قائدًا، ويلزمه الحج إذا وجد مع الزاد والراحلة قائدًا.

واختلف القدماء في رؤية الأعمى للمنامات، فقال بعضهم: يرى. وقال بعضهم لايرى. والذي يقتضيه المقام هو التفصيل الموافق لما أثبتته التجربة والعلوم الحديثة، وخاصة علم النفس، وهو أن الأعمى إن كان قد طرأ عليه العمى بعد إبصار، وبعد تمييزه للأشياء فإنه يستطيع أن يرى منامات وإلا فلا، وليس عدم الرؤية للأكمه بمانعة من أن يحلم أحلاما سمعية أو كلامية، لأنه وإن فقد البصر يسمع ويتكلم.

* * *

* *

# حماية النظام الأسري ضرورةٌ شرعيةٌ واجتماعيةٌ

بقلم: الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي(*)

**تمهيد:**

الحفاظ على النظام الأسريّ ضرورةٌ شرعيةٌ واجتماعيةٌ، وهو مسؤوليةٌ جماعيةٌ، تبدأ من الفرد، وتنتقل إلى الأسرة، ثم تشمل المؤسسات التربوية، والإعلامية، والسياسية.

فالمجتمع الذي تنهار فيه الأسرة، سرعان ما يُصاب بالتفكك، والضياع، والجريمة، والانتحار، والتطرف، والأنانية، لأن الأسرة هي الحاضنة الأولى للفرد، والمصنع الأصيل للقِيَم، وإذا صلُحت الأسر، صلح المجتمع، وإذا فسدت، فسدت الحياة. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء:٢٧-٢٨].

**الحاجة الفطرية للإنسان إلى النظام الأسري**

لقد خلق اللهُ الإنسانَ في أحسنِ تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤]، وأكرمه وفضّله على كثيرٍ ممن خلقه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، وكان من مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان أن أمرَ الملائكةَ بالسجود له، وأُهبط إبليسُ من الملأ الأعلى؛ لأنه استكبر أن يسجد لهذا المخلوق الكريم ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [البقرة:٣٤، الأعراف:١١، الإسراء:٦١، الكهف:٥٠].

ومن نعم الله الكبرى على الإنسان أنّه سخر له ما في السماوات وما في الأرض، فهو يغوص في أعماق البحار، ويرسل آلاته إلى الكواكب البعيدة، ويركب متن الرياح وموجات البحار ليقطع آلافًا مؤلّفة من الأميال، وتبشره شمس كُلّ صباح باكتشافاتٍ جديدةٍ وابتكاراتٍ مذهلةٍ، ورغم هذا التفوق العقليّ والمعرفيّ، فإنّ الإنسانَ يظلّ ضعيفَ البنيةِ، محتاجًا إلى الرعاية، عاجزًا عن الاستقلال في بداية مسيرة حياته، فجميع الكائنات الحيّة الأخرى – مقارنةً بالإنسان المولود حديثًا – تقف على

(*) رئيس قسم الكتاب والسنة بالجامعة الإسلامية، كيرالا

أقدامها وتعتمد على نفسها في وقتٍ وجيز؛ فبعضها يبدأ في المشي بعد ساعاتٍ معدودة، وبعضها الآخر بعد أيامٍ أو أشهرٍ قليلة. أما الإنسان فلا يستطيع أن يفتح عينيه إلا بعد ساعات، ولا ينطق بكلماته الأولى إلا بعد شهور، ولا يخطو خطواته الأولى إلا بعد عامٍ كامل أو يزيد، ولا ينضج عقله ويدرك مسؤولياته الحياتية إلا بعد مرور سنواتٍ طويلة. ولذلك فإنّه يحتاجُ إلى والديه، وأسرته، ومعلميه، ومربيه، وأولي النصح والرعاية من ذوي الحكمة والبصيرة.

ومن هنا تتبدّى حاجة الإنسان الماسّة إلى الأسرة أكثر من أيّ حاجةٍ أخرى؛ فإذا فقد ظلّ والديه أو أحدهما، شعر بوحشة الوحدة كأنّه شجرةٌ بلا ظلّ وارف. وإن لم يكن له إخوةٌ وأخوات، أحسّ بفراغٍ عاطفيٍّ قاتل ووحشةٍ نفسيّةٍ خانقة. وإن حُرم حنانَ الجدّ والجدّة، أحسّ بخواءٍ روحيّ كبير. وإذا لم يجد أعمامًا وعمّات، وأخوالًا وخالات، شعر كأنّ الحصن الأسريّ الواقي الذي يحيط به قد تهدّم وانهار. ثمّ إذا بلغ مرحلة النضج والشباب ولم يجد زوجًا يشاركه مسيرة الحياة ومتاعبها وأفراحها، وجد في أعماق نفسه القلق والتوتّر والاضطراب. وحين يُرزق الأولاد، يشعر بسعادة نفسية لا توصف، فالحياة دونهم تبدو عبثية خالية من الهدف، وتُكمل أسرته بالأسرة المصاهرة، فتمنحه طاقة نفسية جديدة. وتتحول الأسرة مع الأصهار إلى سندٍ نفسيّ واجتماعيّ إضافيّ.

فالإنسان بفطرته السليمة وطبيعته الأصيلة يميل إلى أن يعيش في إطارٍ أُسَريٍّ شامل متكامل، يجمعه بالآباء والأجداد، والأبناء والأحفاد، والإخوة والأصهار، ويمنحه الشعور العميق بالأمان، والانتماء، والاستقرار النفسي، والاجتماعي.

**الفوائد الجليلة للنظام الأسري**

**الحماية والدفاع المتبادل**: إنّ من أجلّ فوائد النظام الأسري توفير الحماية والدفاع المتبادل؛ فالإنسان إذا أُسيء إليه وتعرّض لظلمٍ أو اعتداء، شعر أنه ليس وحده؛ بل وراءه عائلة كاملة تسانده، وكذلك المعتدي يتردد حينما يعلم أنه يواجه أسرةً بأكملها، لا فردًا معزولًا.

من هذا المنطلق الحكيم، جاءت شريعة الإسلام الغرّاء فجعلت «العاقلة» – وهم أقرباء الجاني – شركاء في دفع الدية، كي يشعر الأقارب بالمسؤولية الجماعية، ويشاركوا في الوقاية من الجريمة، تمامًا كما كان الأمر راسخًا عند العرب قبل الإسلام، ولا يزال سائدًا في بعض المجتمعات القَبَليّة المعاصرة.

**التكافل الاجتماعي والاقتصادي**: ومن الفوائد الجوهرية للنظام الأسري تحقيق التكافل الاجتماعي

مــن خــلال إعالــة الفقــراء والمحتــاجين والعجَــزة واليتامى والأرامل، حيث يُتوقّع من كلّ فردٍ قادر أن يتحمّـل مـسؤولية أقاربـه المعـوزين، وفقًـا لأحكـام النَّفقة والميراث المحكمة في الشريعة الإسلامية، التي تتأسّس على مبدأ الترابط الأسريّ الوثيق. فالأولاد مـسؤولون عـن إعالـة الوالـدين ورعـايتهما، والآبـاء مــسؤولون عــن الأولاد وتــربيتهم، والزوجــان مسؤولان عن بعضهما البعض، وكذلك أفراد الأسرة الموسرون مسؤولون عن إعانة المحتاجين منهم.

إنّ الإنـسان في المنظـور الإسـلامي لـيس فـردًا منعزلًا منقطعًا؛ بل هو جزءٌ لا يتجزّأ من أسرةٍ أكبر، لبنةٌ أساسيّة في بناءٍ اجتماعيّ متماسك، لا يصحّ له أن ينفـصل كليًّـا عـن بـاقي أفـراد الأسرة، ولا يجـوز لـه شرعًـا وأخلاقًـا أن يعـيش لنفـسه وحـدها بأنانيّـة مفرطة؛ بل هو جزءٌ حيويّ من كيانٍ اجتماعيّ أكبر وأشمل.

**المشاركة الوجدانية في الأفراح والأتراح:** أمّا الفائـدة الثالثـة الجوهريـة لـلأسرة، فتتمثّـل في أنّ الأسرةَ تـشارك الإنـسان أفراحـه وأتراحـه عـلى حـدّ سـواء، فتـضاعف بهجـة الفـرح مـن خـلال المـشاركة الجماعية الصادقة، وتُهوِّن وطأة الأحزان والمصائب من خلال المواساة القلبية الحانية. فالفرحة التي لا يشارك فيها الأبوان والأقارب الأحبّاء تبقى ناقصة مبتورة، والمصيبة التي لا يُواسي المرء فيها أحدٌ من أهلـه وذويـه، تبـدو كالجبـال الـرواسي الثقيلـة التـي تُحطّم الروح وتُدمّر النفس.

**مكانة الأسرة السامية في الشريعة الإسلامية**

لهـذه الأسـباب الجوهريـة، عـدّ القـرآن الكـريم الأسرةَ من أجلّ نعم الله تعالى على الإنسان، فجعل للإنـسان ثلاثـة أُطـرٍ أسريّـةٍ متكاملـة: أسرة الأب (النسب الأبـوي)، وأسرة الأم (النسب الأمـومي)، وأسرة الزوجـة أو الـزوج (المـصاهرة). وقـد عـبّر القرآن الحكيم عن هذه الأطر الثلاثة بتعبيرٍ جامع: «نسبًا وصهرًا»، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُـوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان:٥٤). فالنظام الأسريّ المتكامل نعمةٌ إلهيةٌ جليلة، يوفّر للإنسان الحماية والرعاية والسكينة القلبية.

لكـن أحكـام الإسـلام الحكيمـة – كأحكـام المـيراث والنفقـة – ترشـد المـسلمين إلى ألاّ يكـون حجم المسؤوليات الأسرية مُرهقًا للفرد إلى درجة أن يفقـد راحتـه النفـسية، أو تُنتهـك خـصوصيته الشخصية المشروعة. فالإسلام لم يُردْ للإنسان أن يكـون مُنغمـسًا في شـؤون الأسرة أكثـر مـن الـلازم بـشكلٍ مُفـرط؛ إذ إنّ الإفـراط في توسـيع الـدائرة الأسرية قد يجعل الإنسان داخل بيته الخاصّ كأنّه في

الــسوق العــامّ، وقــد تــؤدّي اختلافــات الطبــاع والأمزجـة إلى النفـور والتباعـد بـدلًا مـن التقـارب والتآلف.

لــذا، فبيــنما يعــترف الإســلام بأهميــة الأسرة الجوهرية ويؤكّد عليها، فإنّه يدعو في الوقت نفسه إلى ضـبط حـدودها وتنظـيم علاقاتهـا، بـما لا يـضرّ بالراحــة النفــسية والاســتقرار الشخــصي. وهكــذا يُرشـد الإسـلام إلى تحقيـق التـوازن المطلـوب: أسرة مترابطة متماسكة لكن غير متطفّلة مُتدخّلة، متماسكة متعاونـة لكـن غـير متغوّلـة عـلى خـصوصيات الفـرد وحقوقه المشروعة.

إنّ الأسـاس المتـين الـذي يقـوم عليـه النظـام الأسري في الـشريعة الإسـلامية هـو مبـدأ «العـدل والإحسان» المتكامل؛ فالعدل يقتضي أن تُعامِل كما تُعامَل، ولـذلك جُعلـت النفقـة متناسبة مـع نـصيب الإرث: فالنفقـة واجبـة عـلى مـن يحتمـل أن يـرث الشخص، وبمقدار نصيبه المحتمل من الإرث. أمّا الإحـسان، فهـو أن تُحـسن إلى مـن لا يُحـسن إليـك بالـضرورة، أي علاقـة مبنيـة عـلى الإيثـار والفـضل ومجـرّد القربـى والـصلة الطبيعيـة، ويكـون ذلـك مـن باب التطوّع والتفضّل والكرم.

وهكذا فإنّ الأسرة في المنظومة الإسلامية تقوم عـلى مبـدأ التـوازن الـدقيق بـين «الحقـوق الـشرعية الثابتــة» و«الــروابط العاطفيــة المتدفّقــة»، وبــين «الواجـب القـانوني المحـدّد» و«الفـضل الأخلاقـي المفتوح».

**الدور المحوري للمرأة في النظام الأسري**

للمـرأة دورٌ جـوهريّ لا غنـى عنـه في تكـوين الأسرة وحمايتها والمحافظة على تماسكها؛ فهي التي تحتضن الأولاد في أحشائها وبين ذراعيها، وتربطهم بآبائهم وأقاربهم بخيوط المحبّة والحنان، وتجمع في شخـصيتها بـين رقّـة الأمّ الحانيـة ومحبّـة الزوجـة المخلصة. وهذا الدور الفريد يتطلّب أن تكون المرأةُ مفعمــةً بالعاطفــة الجيّاشــة، شــفافةَ الإحــساس المرهـف، ذاتَ قلـبٍ مليءٍ بالرحمة والـشفقة. وهـذه الخـصائص النفـسية والعاطفيـة، وإن كانـت فـضائل عظمـى ومزايـا كريمـة، إلاّ أنّهـا قـد تُـؤثّر أحيانًـا عـلى القـدرة عـلى اتّخـاذ القـرارات العقلانيـة الـصارمة في بعض المواقف الحسّاسة.

لهذا السبب، شدّد الإسلام على إعطاء النساء حقـوقهنّ كاملـة غـير منقوصـة، وصَـانَ كـرامتهنّ الإنـسانية، ومنـع اسـتغلال ضـعفهنّ الطبيعـي أو العـاطفي، وأوصى بهنّ النبي الكـريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في خطبـه ووصـاياه المباركـة أعظـم وصـية، وأكّـد بوضوح تامّ أنّ هضم حقوق النساء أو إرغامهنّ على ترك بيت الزوجية المقدّس وإهمال الأمومة الفطرية،

وإجبارهنّ على العمل خارج البيت لمجرّد سدّ الحاجات المالية، سيُؤدّي حتمًا إلى انهيار الأسرة انهيارًا كاملًا.

**المأساة الحضارية: تجربة الغرب المرّة**

وهذا هو بالضبط ما حدث فعلًا في المجتمعات الغربية المعاصرة؛ حيث استُدرجت المرأة إلى سوق العمل الشاقّ خدمةً للمصالح المادّية البحتة، والبحث عن الأيدي العاملة الرخيصة، وتحقيق النموّ التجاري والاقتصادي، تحت شعارات براقة مضللة مثل «المساواة بين الجنسين» و «التحرّر الاقتصادي للمرأة». وجُعلت المرأة أداةً استهلاكية للإعلانات التجارية والدعايات المختلفة، حتى صارت مُطالبة اجتماعيًّا بأن تعمل وتكسب وتلبّي جميع حاجاتها المالية بنفسها دون الاعتماد على أحد. ونتيجةً لهذا الانحراف الخطير عن الفطرة السليمة، فقدت الأسرة توازنها الطبيعي، وتدهورت العلاقة بين الزوجين، وانتشرت حالات الطلاق بصورة مُفزعة، وازداد تفضيل العلاقات غير الشرعية على الزواج الشرعي، وانخفض معدّل الولادة انخفاضًا حادًّا، وازداد الزنا والعلاقات المحرّمة، وكثُر الأطفال المجهولو النسب، ولجأ الناس إلى المخدّرات والكحول هربًا من واقع الحياة الزوجية الفارغة العبثية، وانهارت علاقات الرحمة الطبيعية بين الآباء والأبناء، وأصبح النظام الأسري برمّته في حالة تفتّتٍ شديد وانهيارٍ مُدمّر.

**من أهم أسباب انهيار الأسرة وتفككها في عصرنا**

يرجع تفكك الأسرة في العصر الحديث إلى عوامل كثيرة، من أهمها:

**الاختلاط المفرط دون ضوابط شرعية:** فقد أتاح الانفتاح الإعلامي، والتعليم المختلط، والعمل المشترك بين الجنسين، فرصًا متزايدة للتواصل بين الرجال والنساء خارج نطاق الزواج، مما أدّى إلى انهيار الحياء، وتدنّي قيمة العفّة، وشيوع العلاقات العابرة، وبالتالي عزوف كثير من الشباب عن الزواج.

**ضعف التديّن وانهيار القيم الأخلاقية:** حين تتلاشى الرقابة الإيمانية من القلوب، وتُستبدل القيم الموروثة بقيم غربية مادية، تصبح الشهوة هي المعيار، والمصلحة هي الحَكَم، فتفقد الأسرة مكانتها، ويُستبدل الزواج الشرعي بعلاقات لا مسؤولية فيها.

**الدعوات النسوية المتطرفة:** روجت بعض التيارات النسوية الغربية لفكرة التمرد على الأسرة، ووصفت الزواج بأنه عبودية جديدة، وصوّرت المرأة المتزوجة بأنها مقموعة، فاستجابت بعض النساء لهذه الدعوات، وطالبن باستقلالية تامة عن الرجل، حتى داخل بيت الزوجية، مما أدّى إلى

تصادم الأدوار، وغياب التناغم الأسري.

**الجهل بالحقوق والواجبات الأسرية:** كثير من الأزواج والزوجات يدخلون مؤسسة الزواج دون تأهيل شرعي أو معرفي أو نفسي، فيجهلون حقوق بعضهم بعضًا، ويُخطئون في التعامل مع الخلافات، فيقودهم الجهل إلى الطلاق أو التنافر أو الجفاء العاطفي.

**وسائل التواصل الاجتماعي والفضائيات:** أصبح الهاتف الذكي منافسًا صامتًا داخل الأسرة، حيث يجلس كل فرد منعزلًا في ركنه، يتفاعل مع العالم الافتراضي أكثر مما يتفاعل مع أسرته، فغابت لغة الحوار، وقلت المشاركة، وظهرت المقارنات السلبية، والشعور بالنقص، أو الرغبة في تقليد حياة الآخرين الزائفة.

**النتائج المدمّرة لتفكّك الأسرة**

**أولاً: مأساة كبار السن ووحدتهم القاتلة:** لقد صار العيش بالنسبة لكبار السن عسيرًا مُرهقًا إلى أقصى الحدود؛ إذ أصبحوا يعيشون وحدةً قاتلة مُدمّرة، إمّا في دور العجزة والمسنّين الباردة حيث لا يزورهم أولادهم إلاّ مرّةً أو مرّتين في السنة على سبيل أداء الواجب الشكلي، أو يعيشون في عزلةٍ اجتماعيّة خانقة داخل بيوتهم المهجورة، فلا يجدون من يسقيهم كأس ماءٍ بارد أو يُطعمهم لقمةً شهيّة، ولا من يؤنسهم بكلمةٍ طيّبة أو يُخفّف عنهم بابتسامةٍ صادقة، حتى أصبحت الحياة بالنسبة إليهم أمرّ من الموت وأقسى من العذاب.

**ثانيًا: النساء ضحايا النظام الجديد:** إنّ الضرر الثاني الفادح الناتج عن تفكّك النظام الأسري يُصيب النساء بصورةٍ أشدّ وطأةً وأعمق تأثيرًا؛ إذ إنّ الصحة الجسدية للمرأة بطبيعتها البيولوجية أكثر عرضةً للتدهور السريع، بسبب ما تتعرّض له من آلام الحمل والولادة والتغيّرات الهرمونية المعقّدة المرتبطة بها، فتتأثّر صحّتها العامّة بسرعة أكبر من الرجل. ومع تقدّم العمر، لا تتلاشى ملامح الجمال الظاهري فحسب؛ بل تتأثّر أيضًا قواها العقلية والنفسية بصورة ملحوظة وتدريجية.

وفي المجتمعات التي يُختزل فيها دور المرأة ليصبح مجرّد أداة للمتعة الجسدية العابرة والإشباع الحسّي المؤقّت، تُصبح المرأة التي فقدت نضارة شبابها وعلامات جمالها الخارجي بلا قيمة تُذكر في نظر المجتمع. لهذا السبب العميق، تشعر كثيرٌ من النساء في المجتمعات الغربية بقلقٍ وجوديّ عميق واضطرابٍ نفسيّ مزمن مستمرّ. ولعلّ هذا هو أحد الأسباب الجوهرية الكامنة وراء تزايد إقبال النساء في الغرب على اعتناق الإسلام، مقارنةً بالرجال، لما يجدنه في الإسلام من تكريمٍ حقيقيّ للمرأة وتقديرٍ

عميـق لإنـسانيّتها وكرامتهـا، بعيـدًا عـن الـشكل الخارجي والمظهر الزائل.

**ثالثًـا: الأطفـال يـدفعون الـثمن البـاهظ:** أمّـا الضرر الثالث المأساوي، فهو الذي يُصيب الأطفال الأبريـاء؛ إذ حـين يُنتـزع جـوهر العلاقـة الأسريـة الدافئة من الحياة، وتُصبح الحياة متمحورة حول اللهو الفارغ واللذّة العابرة والأنانية المُطلقة، فإنّ كلّ ما يُعيق هذه المتع الزائفة يُنظر إليه كعبءٍ ثقيل لا يُحتمل ومُعوّق مُزعج لا يُطاق.

في مثل هذه الحياة المتحرّرة من القيم والأخلاق، يُنظـر إلى الأطفـال عـلى أنّهـم قيـدٌ صـارم عـلى حرّيـة الوالدين المُطلقة، فهم يشكّلون عائقًا كبيرًا أمام المرأة العاملة الطموحة، ويُعدّون مصدر قلقٍ إضافيّ وتعقيدٍ نفسيّ في ظلّ تفشّي الخيانة الزوجية وغياب الالتزام، ويُطـرح التـساؤل المـؤلم: «إذا افترقنـا، مـن سـيتحمل مـسؤولية هـؤلاء الأطفـال؟» مـن هنـا نلحـظ أنّ المجتمعات الغربية تسعى إلى الهروب من الإنجاب، وإن وُجـد الأطفـال، فـإنهم غالبًـا يُودَعـون في دور الرعايـة، فـلا يـرَون مـن حنـان الأم وشـفقة الأب إلا لمامًا، ربما ليوم أو يومين في الأسبوع، مما يخلّف آثارًا نفسية عميقة في نفوسهم.

**رابعاً: فقدان الهوية، أحد أعمق الآثار:** ومن أخطـر هـذه الأضرار التـي تنـتج عـن انهيـار النظـام الأسري فقدان الهوية. فقد غرس الله تعالى في فطرة الإنـسان حـبّ التميّـز والانـتماء، فهـو يرغـب في أن تكون له هويةٌ واضحة المعالم، تتّصل بمدينته، وبيته، وتجارتـه، وأهـمّ مـن ذلـك كلّـه: بنَـسَبه إلى أبويـه وعائلته، إذ تُعدّ هذه الهوية الفطرية مصدرًا للفخر والاعتزاز. أما من يُحرَم هذه الهوية، فإنّه يعيش حالة من الاضطراب النفسي، قد تتفاقم إلى أمراض نفسية خطـيرة، بـل وقـد تـؤدي ببعـضهم إلى الانحـراف والسلوك الإجرامي. وتُظهر الدراسات الاجتماعية أنّ تفكـك الأسرة، والعـزوف عـن الـزواج، وشـيوع الزنـا، وولادة أطفـال مجهـولي النسب قـد سـاهمت في ارتفاع معدّلات الجريمة في الدول الغربية.

**خامـساً: فقـدان الـسكينة، أعظـم الخـسائر الإنـسانية:** إنّ أعـزّ مـا ينـشده الإنـسان هـو سـكون القلـب وطمأنينـة الـنفس، وهـذا الـسكون لا يتحقّـق إلا مـن خـلال العلاقـة بـالله تعـالى، أو مـن خـلال العلاقات الإنسانية الأصيلة. وما من شيء يضاهي في راحته وسكينته لحظةَ احتضان الطفل بين يدي والديه، فهذه الطمأنينة لا تُقاس بأيّ نعمة مادية. وكـذلك مـا ينالـه الوالـدان مـن سرور وراحـة قلبيـة حينما يُدلّك الابن البارّ رأس أبيه أو يقبّل أيديهما لا يمكن أن يقدّر بثمن، ولا يُمكن أن يُعوّض بأفخر ما في الـدنيا مـن أَسِرّة مطليـة بالـذهب والفـضة. كـما أنّ

الـزوج والزوجـة لا يجـدان بـديلًا يُغنيهما عـن دفء العلاقة الزوجية، ومودّة الأخ لأخته لا تُشبهها أيّ علاقة أخرى.

لكـن حـين تتفكّـك الأسرة، تتفتّـت الـروابط العائلية، تمامًا كما لا يُمكن مصباحًا بلا كهرباء أن يُضيء، فإنّ العلاقات الخالية من الروح والمودّة لا تمـنح الإنـسان سـكينة القلـب. ومـن هنـا، فـإنّ المجتمعات الغربية؛ بل حتى المجتمعات المتأثرة بها، تعـاني ارتفـاع معـدّلات الأرق، والاكتئـاب، والانتحار بشكل غير مسبوق. ولا ريب أنّ بقاء النظام الأسري وتماسكه نعمة عظيمة من الله، بينما تفكّكه يُعدّ من أعظم الابتلاءات الاجتماعية في العصر الحديث.

**عولمة التفكك الأسري**

لم تقتصر العولمة على تصدير السلع والمنتجات الغربية إلى بلاد الشرق فحسب؛ بل شملت أيضًا تصدير الفكر والثقافة ونمط الحياة الغربية إلى مجتمعاتنا. ونتيجةً لذلك، نُلاحظ تنامي نمط معيشي بين الشباب – لا سيما الفتيات – يقوم على الانفصال عن الأسرة و التفلّت من روابطها، بحيث لا يرغب أحدهم في خدمة والديه أو الخضوع لأوامرهم.

لقد أصبح الوالدان – اللذان جُعلت الجنّة تحت أقدامهما، وسُمّيت طاعتهما من أبواب الجنّة – عبئًا ثقيلًا في نظر أبنائهم. وصارت نصائح كبار العائلة، المستندة إلى الخبرة والحكمة، تُعتبر تدخّلًا غير مرحّب به. وأخذت روابط الوفاء في الزواج تضعف، كما تنامى الميل إلى تجنّب الإنجاب، ولم يعد كثيرٌ من الناس يشعر بمسؤولية تجاه إعالة الأقارب المحتاجين أو رعايتهم.

باختصار، يواجه نظام الأسرة في مجتمعاتنا خطر التفكك والانهيار، وهو ما يُحتّم علينا العمل الجادّ للحفاظ عليه، والوقوف في وجه تيار التغريب الذي يسعى إلى طمس مفهوم الأسرة وتصويره على أنّه مجرّد تقليد قديم بالٍ، غير مناسب للعصر الحديث. إنّ الغرب – الذي يحترق اليوم بنار تفكّك الأسرة – يُريد أن يُلقي بنا في نفس المستنقع، فعلينا أن نرفض هذا المصير، وأن نحافظ على تراثنا الأسري، باعتباره صمّام أمان المجتمع وروح الحضارة.

**سبيل إصلاح الأسرة وحمايتها هو العودة إلى نظام أسري إسلامي متكامل**

لا يمكن بناء أسرة قوية ومتوازنة إلا باتباع نهجٍ شامل يجمع بين الجانب الشرعي والتربوي والاجتماعي، فالعالم اليوم بحاجة ماسّة إلى نموذج أسري متكامل، يعيد للإنسان سكينته، ويمنحه الشعور بالأمان، ويربطه بجذوره، ويُشبع حاجاته العاطفية والروحية. والنموذج الإسلامي للأسرة لا

يقوم فقط على العلاقات البيولوجية؛ بل على روابط المودّة والرحمة والحقوق والواجبات، حيث الزوج والزوجة شريكان في الحياة، متكاملان في الأدوار، والوالدان مسؤولان عن التربية والرعاية، والأبناء مُلزَمون بالبرّ وردّ الجميل. كلّ فرد يعرف دوره ويؤديه بمحبة، بعيدًا عن الأنانية والفردانية.

ولقد حافظ المسلمون طوال قرونٍ على هذا النموذج الأسريّ الراقي، فازدهرت العلاقات العائلية، وتكافل الأقارب، وشعر الفرد أن له ظهرًا وسندًا، وكان لكلمة «الأسرة» معنى واسع يشمل الأجداد والأحفاد والأعمام والعمات، فكانت البيوت مملوءةً بحياةٍ، وروحٍ وجيرةٍ ورحمة.

لكن مع الأسف، بدأ الانهيار يُصيب هذا النظام أيضًا في العالم الإسلامي، نتيجة التغريب الفكري، والإعلام المنفلت، وتراجع الفقه الأسري، وانشغال الناس بالمظاهر على حساب الجوهر، مما يتطلب منا «نهضةً أسريةً» جديدة، تقوم على وعيٍ دينيٍّ، وفهمٍ اجتماعيٍّ، وتخطيطٍ واقعيٍّ.

ولتحقيق ذلك، لا بد من العودة إلى تعليم الإسلام في هذا المجال، وبثّ الوعي الأسري من خلال مناهج التعليم، وخطب الجمعة، والدروس العامة، والبرامج الإعلامية، وإعادة الاعتبار لدور الأسرة في المجتمع، وتقديم الدعم المادي والمعنوي لها، وحماية الأمهات العاملات، وتيسير الزواج، وتحفيز الإنجاب، وتكريم كبار السن، وتعزيز مفهوم القوامة والبرّ والصلة والرحمة والإيثار والتعاون بين أفراد الأسرة.

إنّ حماية النظام الأسري ليست مسؤولية فرد واحد، بل هي مسؤولية جماعية، تبدأ من البيت، وتشمل المدرسة، والمسجد، والمجتمع، والدولة، ووسائل الإعلام، ومؤسسات التعليم، والثقافة. وكلّ خلل في هذه المنظومة ينعكس على كيان الأسرة. فإذا ما أردنا مجتمعًا قويًا متماسكًا، فلابدّ أن نُعيد للأسرة مكانتها، ونوفّر لها أسباب الاستقرار، ونُعينها على أداء دورها الحضاري.

**خاتمة**

إنّ الأسرة هي نواة المجتمع، والركيزة التي يبنى عليها البناء الإنساني. وحين تنهار الأسرة، ينهار الإنسان، ويتحوّل إلى آلة مادية بلا روح. وحين تقوم الأسرة على أسس متينة من الإيمان، والمودة، والتكافل، تنتج أجيالًا قوية، قادرة على حمل الرسالة، وصناعة الحضارة، وتحقيق الخير للبشرية. فلنُحسن إلى أسرنا، ونحافظ على هذا الكنز العظيم الذي حبانا الله.

والحمد لله أولا وآخرًا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

# ساعات في مدينة المال والأعمال

بقلم: **التحرير**

قبل نحو بضعة أعوام طرق باب بيتي طارق، ففتحت الباب فإذا أنا بشاب حديث التخرج من الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، وهو المفتي نعمان[1]، فرحبت به، وجلست معه نتجاذب أطراف الحديث الذي تطرق إلى عزمه على تنفيذ مشروع تعليم اللغة العربية باللغة العربية من غير وسيط لغوي آخر، وذكر أنه على وشك تدشين معهد ديني إسلامي يستخدم اللغة العربية في تعليم المواد الدراسية، ولايلجأ إلى اللغة الأردية إلا في نطاق أضيق. فرحبت بهذا المشروع و ثمنته وقدرته، وقلت له: كم من مشروع ضخم فخم براق في نطاق التحدث عنه والتبجح به، دون أن ينفذ على أرض الواقع. فحاوِلْ أن تضع النقاط على الحروف، وتطبقه على أرض الواقع حتى يرى الناس خيره، ونفعه وعائدته، فيحذوا حذوه، ويقتفوا أثره. فإن المعاهد والمدارس الدينية الإسلامية الهندية بصفة عامة تستخدم اللغة الوسيط- من الأردية وغيرها- في تعليم المواد الدراسية وخاصة اللغة العربية على طريقة القواعد والترجمة، على عكس ما تتبعه المعاهد اللغوية المعاصرة في عالم اليوم من الطريقة المباشرة والطبيعية لتعليم اللغات عامةً، وتعليم اللغة العربية خاصةً.

وبمناسبة عقد المعهد حفلته السنوية التي تتضمن توزيع الجوائز على الطلاب الفائقين بالإضافة إلى عرض تقرير دوري عن منجزاته ونشاطاته التعليمية والتربوية استدعاني المفتي نعمان على لسان المفتي فرقان القاسمي[2] لحضور فعاليات البرنامج وإلقاء الكلمة فيها ومشاهدة منجزاته عن كثبٍ. وتم تحديد موعد الرحلة من «دهلي» إلى «مومبائ» – مقر المعهد- في فجر يوم الجمعة ١١/يوليو عام ٢٠٢٥م، والعودة منها بعد منتصف الليل من يوم السبت ١٢/يوليو إلى «دهلي» ومنها إلى «ديوبند».

وفعلًا حجزوا لنا نحن الاثنين تذاكر على خطوط الجوية الهندية ذهابًا وعودةً. فخرجت – والأخ الفاضل /فرقان الذي قطع تذكرتين بالقطار السريع المسمى (Yoga Express) رقمه (١٩٠٣٢) أمير الركب–، خرجت من بيتي إلى محطة سكة الحديد في «ديوبند» في نحو الساعة الخامسة والنصف

مساءً، والتقيت بالأخ الفاضل في المحطة قبل أن يصل القطار إلى الرصيف بدقائق لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة. وجاء القطار يتهادى فركبناه وتبوأنا مقاعد في قطار مكيف من درجتين (Two-Tier air-conditioned Train)، وجلسنا على الرحب والسعة، دون أن نلقى زحامًا من الركاب أو المارين من عربة إلى أخرى في القطار كما هو الحال في العربات العمومية من القطارات. وغادر القطار محطة «ديوبند» في الموعد المحدد، ثم ازدادت سرعته، وتجاوز المحطات الصغيرة، وبدأ الجو يظلم بحكم غروب الشمس في خدرها حتى ألقى الليل سدوله على الكون، وتستغرق القطارات السريعة عامة أربع ساعات في الوصول إلى «دلهي» عاصمة البلاد. فلم نصل إليها إلا والساعة تدق العاشرة ليلا، ونزلنا من القطار، فاستقبلنا بعض أهل العلم وعامة الناس على الرصيف، وحملوا شنطاتنا على كواهلهم، وخرجنا من المحطة ليستأجروا سيارة تحملنا إلى بعض المراكز الدعوية الشهيرة في المدينة، حيث أنزلونا في غرفة مكيفة، وقدموا من العشاء ما لذ وطاب، فحمدنا الله تعالى على السلامة وعلى الوجبة الشهية، وأدينا صلاة العشاء جماعةً، ثم أزارونا بعضَ أهل العلم والمسؤولين في المركز، الذين قابلوني بما أستحقه وفوق ما أستحقه من الترحيب والتقدير. وقضيت بين هؤلاءالقوم الكرام ساعات في حوار ودي ودعوي وعلمي، وشكرت لهم على ذلك. وبتنا الليلة في المركز، وأخذنا قسطًا من الراحة كبيرًا، لنستيقظ في الساعة الرابعة إلا الثلث، استعدادًا للتوجه إلى مطار «دهلي» الدولي- الصالة رقم:٣-، واستأجر الأخ المفتي/فرقان سيارة، فحملتنا إلى المطار، ووصلناه قبل أن تبرز الغزالة من خدرها، وقمنا باستكمال إجراءات الصعود إلى الطائرة، وبدأنا ننتظر موعد الصعود بالقرب من البوابة رقم:٣٧ من المطار. وفي الساعة السادسة إلا خمس دقائق بدأ الركاب يصعدون إلى الطائرة رقم: (AI 2429) التابعة للخطوط الجوية الهندية المتجهة إلى مدينة «مومبائ» عاصمة المال والأعمال في الهند، فركبنا فيمن ركب، وأخذنا مقاعدنا فيها. ودقت الساعة السابعة صباحًا فتحركت الطائرة وسارت على المدرج سيرًا طويلا حتى أقلعت وبدأت تحلق في جو السماء المظلمة، إذا أخرج المرء فيها يده لم يكد يراها من شدة الظلام، وتعرضت الطائرة في سيرها لبعض المطبات الهوائية فأدخلت الفزع والخوف في قلوب كثير من الركاب، ثم سارت سيرًا هادئًا. فتنفسوا الصعداء، وحمدوا الله على السلامة. وقدم طاقم الطائرة العشاء الخفيف للركاب. ثم تمايلت رؤوسهم يمينًا وشمالًا، وغط بعضهم في النوم العميق. وفي الساعة التاسعة وعشر دقائق هبطت الطائرة على مطار مدينة «مومبائ»، وسارت قليلا

عـلى مدرجـه، ثـم توقفـت أمـام إحـدى بواباتـه، وأضيئت الأنوار وبدأ الركاب ينزلون منها واحدًا بعد واحد، يقابلهم طاقم الطائرة بكلمات الشكر والتقدير على عادتهم على بوابة الطائرة والبسمة راقصة على شفاههم.

وكان المفتي/نعمان كلف بعض أصحابه أن يستقبلنا على المطار في الساعة التاسعة والربع، فاتصل به الأخ المفتي فرقان بعد أن نزلنا من الطائرة، فرد عليه بأنه في الطريق إلى المطار، ويواجه الزحمة الشديدة فيه، مما قد يؤجل وصوله إلى المطار لبعض الوقت، كما تعرضت سيارته لبعض العطل. فلم نجد بدًّا من الانتظار في إحدى صالات المطار- والانتظار أشد من الموت كما يقولون-، وطال الانتظار واشتد حتى دب اليأس إلى القلوب، إذ تلقينا اتصالا من المكلف بالاستقبال يفيد أنه على قاب قوسين أو أدنى من مبنى المطار. فانشرح الصدر وقرت العين، وأمرنا أن ننزل إلى الدور السادس من مواقف السيارات، فنزلنا إليه ولم نجده فيه، فأخذنا الحيرة والعجب من أمره، ولازلنا على اتصال هاتفي معه، وبعد اللتيا والتي رأينا شبهًا قادمًا من بعيد، فإذا هو هو، فاعتذر عن تأخره إلى المطار. ومدينة «مومبائ» معروفة بكثافة سكانها، فواجهنا بعض الزحمة في الطريق؛ لأنه لم يصادف وقت الذروة. والطريق من مطار «مومبائ» إلى منطقة «مومبرا» - في ضواحي المدينة - يستغرق عادة ساعة فأكثر، ولم نصل إليها إلا والساعة تدق الواحدة إلا الربع، فقدموا لنا إفطارًا خفيفًا، وتعجلنا في الاغتسال والاستعداد لصلاة الجمعة، فقد قالوا لنا: لك كلمة في المسجد الجامع، وموعد الصلاة الواحدة والنصف، فبادرنا إلى الجامع، والناس جلوس ينتظرون القادم، فقدمني الإمام إلى المنبر لألقي كلمتي، فوعظتهم وذكرتهم، وأوصيتهم ونفسي أولًا، وتطرق الحديث إلى معاناة المسلمين في شتى أنحاء البلاد وخارجها، وأسبابها وعلاجها، في ضوء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة:٢٠٨]. وجلست بعد الصلاة في ناحية من نواحي الجامع أسلِّم على أهله ويسلِّمون علي، فكان لقاء ماتعًا، تعرفنا من خلاله على أحوال المسلمين وأوضاعهم، وهم خليط من المنحدرين من شتى مناطق البلاد إلى «مومبائ» قديما وحديثًا ليكسبوا لقمة العيش لهم ولأهليهم في هذه المدينة التي اشتهرت بجود أهلها وسخائهم وبذلهم في النشاطات الخيرية، وبأنها تعول الناس جميعًا على حد سواء فقيرهم وثريهم، كما أنها تعتبر أهم شريان مالي في جسد البلاد. و ولاية «مهاراشترا» - التي تحتضن مدينة «مومبائ» - في عداد أغنى ولايات الهند.

وتناولنا الغداء عقب صلاة الجمعة بعد أن قضينا سحابة النهار في رحلة طويلة ابتداء من الانطلاق من «ديوبند» وانتهاء إلى «مومبائ»، وقد بلغ منا الجهد كل مبلغ، فأوينا إلى القيلولة في بيت بعض أهلها، وسرعان ما غط كل واحد منا في النوم، ولم نستيقيط إلا في الساعة الرابعة والنصف حيث ضرب المفتي نعمان موعدًا لوعظ النساء وتذكيرهن، فانطلق صاحبي المفتي فرقان إلى مكان مجتمع النساء، فوعظهن وذكرهن بأحسن أسلوب وأبلغه، وتخلفت أنا لأحل محله حين ينهي كلمته، وفي الساعة الخامسة والنصف انطلقت إلى صالة فيها بعض الرجال وكثير من الأطفال، والنساء من وراء حجاب، فوعظتهن وذكرتهن في ضوء قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١]. وتطرق الحديث إلى تضحية النساء في أول الإسلام، أمثال أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وسمية رضي الله عنها، وهي أول شهيد استشهد في الإسلام أتاها أبو جهل فطعنها بحربة في قبلها، ولقيت هي وزوجها وابنها الألاقي في سبيل الله تعالى، وهم صابرون محتسبون.

وبعد صلاة العصر اجتمعنا على إفطار خفيف بكثير من الشباب الذين تخرجوا من الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند، والناشطين في التدريس والعمل الدعوي في «مومبائ» وضواحيها. وفقهم الله لمزيد من العمل البناء.

وصلينا المغرب وتوجهنا على التو إلى صالة الحفلة في الدور الثاني من بناية ذات بضعة أدوار، وبدأ الحفل بتلاوة أحد طلاب المعهد، وقدم بعضهم المديح النبوي وأناشيد وكلمات التحية والترحيب بالضيوف القادمين من شتى أنحاء المدينة، والذين قد غص بهم المنصة، وبين يدي المنصة طلاب صغار وكبار كأن حولها مراح الضأن. وكلفوني أن أوزع الجوائز على الطلاب الفائقين، فمنهم من نال دراجة هوائية -وهم كثير-، وكان الكتب وغيرها من نصيب بعض آخر؛ وكل ذلك تقديرًا لجهودهم، وتحفيزًا لإخوانهم الطلابة إلى بذل ما يمكن بذله في التعلم والدراسة. فكان منظرًا بهيجًا، هذا طالب صغير ذو ست أو سبع سنوات فاق زملاءه في الدراسة فنال الدراجة الهوائية، وهذا طالب صغير في مثل سنه نال كتبًا وجوائز مادية فناءت به، فلايكاد يحملها فأعانه عليه أبوه أو وليه. ثم أعطيت لي الكلمة فتحدثت عن أهمية اللغة العربية، وأشرت إلى طرق تعليمها وتدريسها، وأن تعليم اللغة العربية باللغة العربية ربما يشكل أنجع الطرق وأنفعها وأشدها تمكينًا للدارس من التحدث والكلام باللغة العربية والكتابة والقراءة. ولم يفُتْنِي

أن أشيد بجهود القوم وعلى رأسهم مدير المعهد وأساتذته وطلابه الصغار الذين انتزع أسلوبهم العربي في التحدث بعضهم مع بعضٍ على السليقة و دون تكلف - انتزع مني الإعجاب والتقدير، وقلت: ليت المدارس كلها تتبع المنهج اللغوي الذي يتبعه المعاهد اللغوية في العالم:

ليت، وهل ينفع شيئًا ليت؟

ليت شبابًا بوع فاشتريت

**دار السنة النبوية لتعليم اللغة العربية في سطور:**

ودار السنة النبوية لتعليم اللغة العربية التي نظمت هذا البرمانج، والتي ضيفتنا بهذه المناسبة، معهد تعليمي لغوي ديني، تم تدشينه خصيصًا لتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية باللغة العربية نفسها في هذه الديار الوثنية البعيدة عن مركز الإسلام ومهبط الوحي، وربما هو أول معهد ديني يستخدم اللغة العربية في التعليم والتدريس، جاء تأسيسه عام ١٤٤٤هـ. وكانت فاتحته بستة مدرسين وسبعين طالبًا توكلًا على الله تعالى. وبلغ عدد الطلاب اليوم نحو مئة وخمسين طالبًا، وعدد المدرسين أربعة عشر مدرسًا.

**أهداف المعهد:**

من أهم أهداف المعهد – كما شرح لي مؤسسه – مايلي:

١- إحياء السنة النبوية وتعليم اللغة العربية.

٢- ربط الأمة بالقرآن الكريم وبالأحاديث النبوية، وبتراثها العلمي.

٣- السعي لإيقاظ الفكر الديني وبثِ الوعي الإسلامي في نفوس الناشئين.

٤- نشر العلم الشرعي، والدعوة إلى الله تعالى، وإرشاد الأمة الإسلامية في أمر دينها.

**أبرز ميزات هذا المعهد:**

ومن أبرز ميزات هذا المعهد استخدام اللغة العربية في تدريس الطلاب صغارهم وكبارهم، وخلق جو عربي يتمكن فيه الطلاب من استخدام اللغة العربية في الحوار العادي.

- العناية الكافية بتطبيقات عملية وتدريبات كتابية وشفوية.

- الاهتمام بتعليم القرآن الكريم بالتجويد والترتيل، حتى يتمكن الطالب من الأداء الصحيح عند تلاوة القرآن الكريم.

- تأهيل الطلاب للذود عن الشريعة الإسلامية والدفاع عنها على بصيرة.

**مراحله الدراسية:**

- التمهيدي.
- روضة الأطفال.
- الابتدائية.
- الإعدادية.
- الثانوية.

ويحتضن المعهد أحد عشر صفًّا: التمهيدي و روضــة الأطفــال، والابتدائيــة (الــسنة الأولى)، والابتدائية (السنة الثانية)، والابتدائية (السنة الثالثة -أ-)، والابتدائية (السنة الثالثة - ب-)، والابتدائية (الــسنة الرابعــة)، الإعداديــة (الــسنة الأولى)، والإعداديــة (الــسنة الثانيــة)، والثانويــة (الــسنة الأولى)، والثانوية (السنة الثانية).

**منهجه الدراسي:**

يتضمن منهجه الدراسي المواد الإسلامية من العقيدة والفقه والسيرة والتربية والأحاديث والسنن والأدعية واللغة العربية قراءةً وكتابةً وتحدثًا.

**طموحات المعهد:**

يطمح المعهد إلى إنشاء أقسام التخصصات في مختلف المواد من الفقه والحديث والعربية وغيرها من العلوم الشرعية.

قضينا بين هؤلاء الطلاب الأبرياء، وبين هؤلاء القوم الكرام نحو تسع ساعات في حوارات علمية وتربوية، ولقاءات ودية. وأعجلنا قرب موعد المغادرة عن رؤية بعض المؤسسات التعليمية الأخرى في هذه المنطقة داعين الله تعالى أن يكتب لهذا المعهد وغيره الرقي والازدهار ليل نهار، ويجعله منارة علم وهدى وإرشاد ودعوة وتعليم في هذه الربوع.

غادرنا المعهد استعدادًا للعودة إلى «ديوبند» في الساعة العاشرة والربع ليلا، حاملين معنا ذكريات طيبة غالية، وكانوا حجزوا لنا على الخطوط الجوية الهندية السريعة (Air India express ) رحلة رقم (IX١١٢٤ )، فركبنا سيارة فارهة يقودها الأخ/ شهباز- الخريت الخبير بطرق «مومبائ» الملتوية والمزدحمة ليل نهار-، آملين أن نكون قد وصلنا المطار الساعة الحادية عشرة قبل موعد إقلاع الطائرة بوقت كافٍ؛ ولكن واجهنا في الطريق زحمةً شديدةً، فلم نصل إليه إلا في الساعة الحادية عشرة والثلث ليلا حين كادت مكاتب الخطوط الجوية الهندية ( Air India express) تغلق، فمن المعتاد إغلاقها قبل موعد الرحلة بساعة واحدة تقريبًا، وكانوا استصدروا لنا بطاقة الصعود إلى الطائرة عن طريق الشبكة مما وفر علينا وقتًا كافيًا، وإلا تخلفنا عن موعد مكاتب الخطوط الجوية؛ فإن مداخل المطار كانت غاصة بالركاب، فلقينا الألاقي في الدخول والمرور بنقطة التفتيش، فلم نجاوزها إلا والساعة تدق الثانية عشرة إلا ربعًا، وانحرفنا في الطريق نبحث عن المصلى نؤدي فيه صلاة العشاء، وبعد اللُّتيَّا والتي وصلنا إليه، وصليت العشاء، وخرج صاحبي يبحث عن الميضاة، فأبعد، وطال الانتظار، وعقارب الساعة تتحرك بسرعة رهيبة إلى موعد الصعود إلى الطائرة، فخرجت أتلمسه فلم أجد، فاتصلت به، وحملته على الاستعجال مخافة أن تغلق

أبواب الطائرة، فهرولنا إلى البوابة رقم (٥٠) على بعد كافٍ من المصلى، فلم نصل إليه حتى تقطعت الأنفاس، وما إن عرضت بطاقة الصعود على الموظف المختص بالباب حتى صاح باسمي، فقد كنا آخر من صعد إلى الطائرة ثم أغلقت الأبواب. وأعلن المذيع استعداد الطائرة للإقلاع إثر أن تبوأت مقعدي رقم(E١٨) في الطائرة، والساعة تدق الثانية عشرة إلا خمس دقائق.

هبطت الطائرة في الساعة الثالثة إلا خمس دقائق على مطار «دلهي»، وتحركت قليلا على المدرج، ثم توقفت وأضيئت الأنوار استعدادًا للنزول، فنزلنا فيمن نزل، وتوجهنا إلى صالة استلام الأغراض، واتصل المفتي فرقان بالسائق الذي جاء من «ديوبند» ليحملنا إليها، وكان في حاجة إلى دورة المياه ليتوضأ ويصلي. وكانت دورات المياه في حينه تشهد زحامًا كبيرًا، لتوجه عدد هائل من المسافرين القادمين بمختلف الرحلات إلى المطار. فقضينا حوالي نصف ساعة في الصالة، ثم خرجنا إلى الشارع ننتظر السائق قبالة بواب المغادرة من المطار، فجاء بسيارته وركبنا، وسِرنا سيرًا حثيثا رغبةً في الوصول إلى «ديوبند» أعجل ما يمكن.وبلغنا مشارف مدينة «ميروت» والساعة تدق الخامسة صباحًا، فارتأينا أن نصلي الفجر في مسجد يطل على الشارع العام، فنزلنا من السيارة وتوضأنا وصلينا، بعضنا فرادى وبعضنا جماعةً. ثم عدنا إلى السيارة التي سارت بنا بخطوات سريعة، وتجاوزنا – ولله الحمد- بعض الزحام في الطريق، ثم نزلنا على الطريق الالتفافي ( bypass road) بالقرب من مدينة «مظفر نغر» حوالي الساعة السادسة، ليعبئ السائق السيارة بالبنزين، وتناولنا بعض المشروبات ريثما يفرغ السائق من تعبئة البنزين. وأسرعت السيارة سيرها حتى أدركتُ الحصة الأولى من الدراسة في الجامعة في نحو الساعة السادسة والنصف بسلام آمنًا. وحمدنا الله تعالى على السلامة أولًا وآخرًا.

* * *

**الهوامش:**

(١) هو أبوالطيب نعمان بن المبارك القاسمي البستوي، انحدرت عائلته من مدينة «بستي» في الولاية الشمالية الهندية إلى مدينة «مومبائ»، شاب نشيط، تلقى مبادئ دراسته في بلده ثم في بعض المدارس، وتخرج من قسم التفسير دارالعلوم/ديوبند، و تخصص في الحديث وعلومه، واللغة العربية والفتوى. وقام برحلات دعوية إلى عدد من الدول العربية وغيرها. يتكلم باللغة العربية بطلاقة.

(٢) المفتي فرقان القاسمي من ولاية «مهاراشترا»، غرب الهند، تلقى مبادئ دراسته في بلده ثم تخرج من دارالعلوم/ديوبند وتخصص في الفقه والإفتاء ويدير معهدًا لتعليم الفقه والفتاوى والتدريب عليها، شاب نشيط، وداعية جوال، كثير الاحترام والتقدير للعلم وأهله، وطيد الصلة بالجهود والمساعي الدعوية.

* * *

## بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

وأما الإنسان الكافر بربه، والمتنكر لنعمه، والخارج على شريعته وقوانينه، فإنه يزهو، و يتبختر، ويشمخ بأنفه، ويتيه في كبريائه، ويترفع عمن دونه من بني جلدته، ويندفع وراء أنانيته وغطرسته وعنجهيته، ويعجب برأيه وبنفسه، ويرى نفسه شرطي العالم؛ بل فوق ذلك؛ فإن الشرطي ليس من وظيفته إلا التنظيم والتنسيق، وليس عليه إلا أن ينفذ القانون، وأما هو فيضع القانون، ويضبط المبادئ، فهو أعلى وظيفةً وأشرف مسؤوليةً وأرفع مكانةً من الشرطي. ولا عجب إذا كان ذهب يدعي أن ما عنده من النعم والوسائل والإمكانيات فمن العلم الذي أوتيه، وليس منحة ربانية، يحرمه إياها إذا شاء، فينسى المنعم ونعمته، وما يجب له من الشكر والحمد، قال الله تعالى حكاية عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩].

فهذه قوم ثمود، كم أنعم الله تعالى عليهم، وزادهم في الجسم والقوة بسطة، قال الله تعالى فيهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

وهذه قوم عاد، أنعم الله تعالى عليهم كثيرًا، وكانوا ذوي بطش شديد، يتخذون مصانع لعلهم يخلدون، فكفروا بأنعم الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴿١٣٠﴾﴾

[الشعراء:١٢٨-١٣٠].

وهذا فرعون قد أعطاه الله تعالى وقومه أموالًا وزينةً من الحياة الدنيا، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]. فاغتر بما أعطيه من نعيم الدنيا وأسبابها فادعى الربوبية، قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]؛ بل كان يرى أنه هو الرب الأعلى، قال تعالى حكاية عنه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [الْقَصَصِ:٣٨]، وقال تعالى حكاية عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

والإنسان حين يستولي عليه نشوة القوة والعدة والعتاد يندفع إلى الاستكبار بغير الحق، ولايصغي لنداء العقل والضمير، فيرى أن الحق هو القوة، وأن العقل هو حيلة الضعفاء والبائسين، و لايقيم لرأيهم وفكرتهم وزنًا، ولا يفكر إلا بمنطق القوة والبطش، يقول الله تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١]، فكانوا لايعدلون الحقيقة القوية التي يحملها بجناح بعوضٍ. فكانوا لايحسبون لعصبية القبيلة وصلة الدم حسابًا، وأما عصبية العقيدة وصلة القلب، وغيرة الله تعالى على أوليائه فلا يضعونها في بالهم وحسابهم إطلاقًا.

والاغترار بالقوة كثيرًا ما يورث صاحبه الاستكبار والعنجهية والغطرسة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس:٧٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ

وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩].

والاغترار بالقوة والسلطة والتمكين لايجلب إلا الدمار والهلاك، ولذا خوف الله تعالى كفار قريش مما وقع للأمم السابقة التي اغترت بها، وأعرضت عن قبول الحق والصواب بالحجة والبرهان، فلم تغن عنها فئتها ولاكثرتها وقوتها، ولاما كانوا يعبدونه من دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّـٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعًا وَأَبۡصَـٰرًا وَأَفۡـِٔدَةً فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَـٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَـٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف:٢٦-٢٨].

وبكتهم الله تعالى وهددهم بالهزيمة وكسر الشوكة، وتفريق شملهم، قالوا- والقائل هو أبو جهل-: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فنزل قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٤-٤٥].

وكم من دولة تباهت – وتتباهى اليوم– بعلو سلطتها واشتداد بطشها، وارتفاع قدراتها العسكرية الفتاكة، وتظن أن كلمتها هي الكلمة الأخيرة في الشؤون الدولية، وقولها هو القول الفصل فيها، لا راد لأمرها، ولا مانع من إشباع كبريائها، ثم كيف كان مصيرها؟ وكيف ذاقت وبال أمرها؟ يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ [غافر:٢١]. إذًا فمنطق القوة والبطش ما كان له أن يصمد أمام السنة الإلهية والأخذ الرباني ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

* * *

# من أشد منا قوةً

الإنسان من أضعف خلق الله تعالى، وأحاطت نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة به من كل جانب، وأنواع وألوان من آلائه تنصب عليه كل حين بإذن ربه، وقد سخر الله تعالى له ما في السماوات وما في الأرض، فيخوض في أعماق البحار والأنهار فيستخرج منها حلية يلبسها، و يمخر به الجواري كالأعلام في مياهها. ويخترق الأجواء ويحلق في جوء السماء كأنه على سرير يجري، ويبني على وجه الأرض ناطحات السحاب، وينحت الجبال بيوتًا؛ وكل ذلك بما أعطاه خالق الكون من قوة وعقل وتفكير، وأرشده إليه من الوسائل والآليات التي ذللت له الصعاب، وهونت عليه العقبات، وقربت له البعيد.

ثم إن الإنسان المؤمن بربه، الشاكر لنعمه يستخدم هذه الوسائل والإمكانيات والنعم بألوانها وأنواعها فيما يرضي به ربه، ويتقرب إليه، وينال الحظوة لديه، ويعرف حق الله تعالى وحق عباده فيها، فلايصرفها إلا فيما يحبه، ويشكره على ذلك، قال تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥]. وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧].

(البقية على ص ٥٣)

**أبو عائض القاسمي المباركفوري**